القمص بطرس السرياني

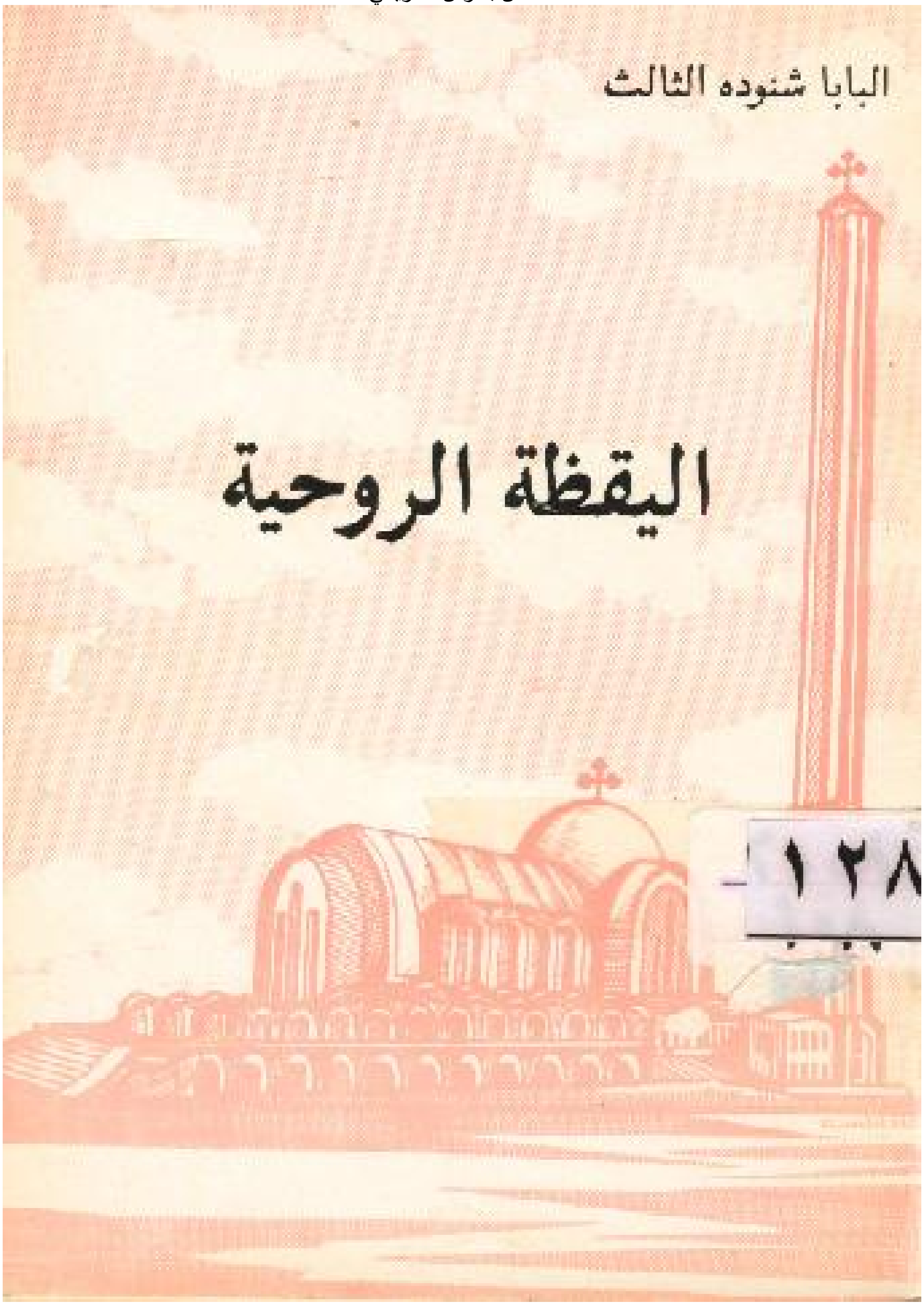

القمص بطرس السرياني

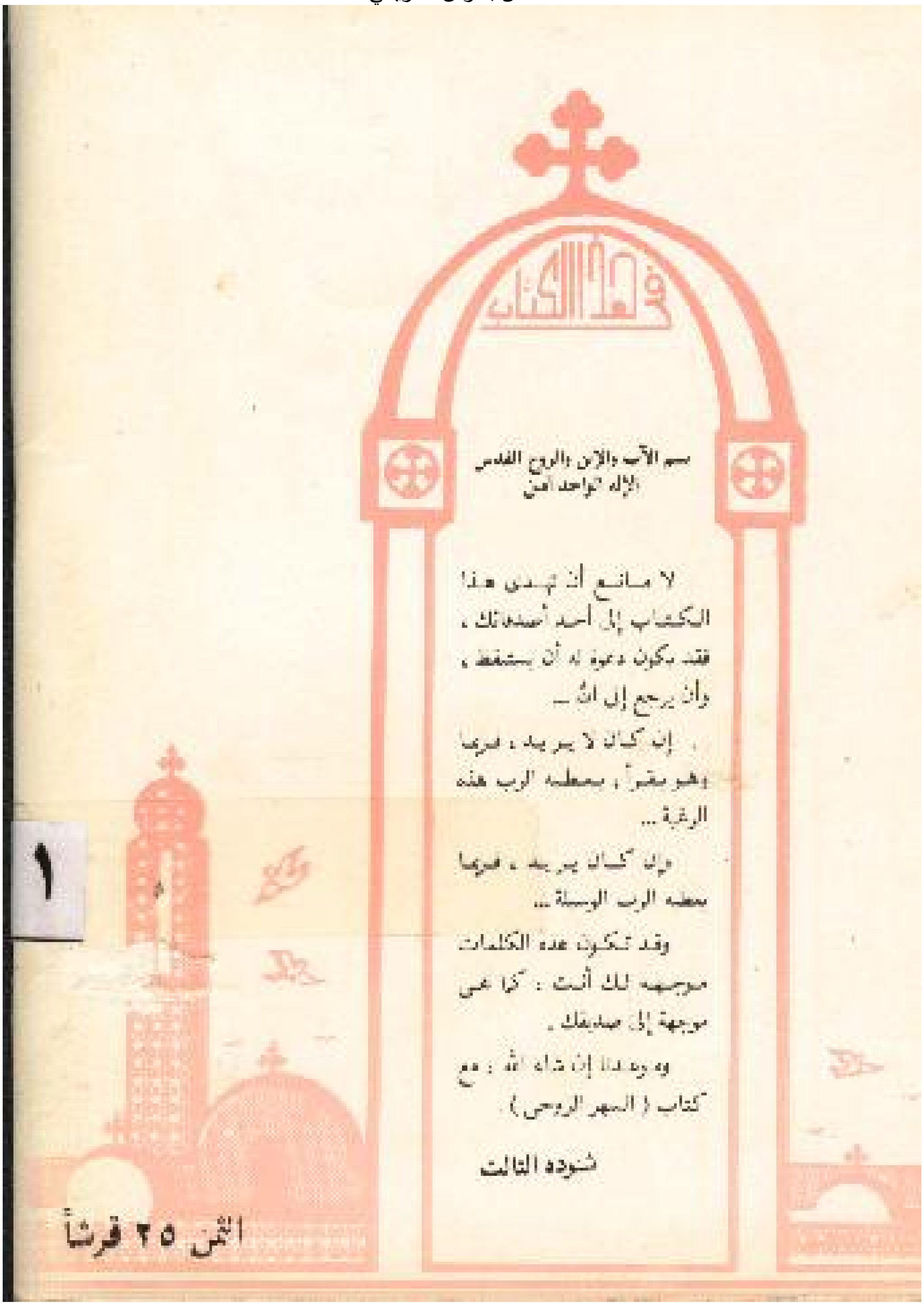

بسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد أمين

مقـــدمة

حياة التوبة هى نقطة البدء فى العلاقة مع الله .
واليقظة الروحية هى نقطة البدء فى حياة التوبة .

وفى هذا الكتاب ، نود أن نحدثك عن اليقظة الروحية .

إنها ست محاضرات ، ألقيت فى الكاتدرائية المرقسية بدير الأنبا رويس بالقاهرة فى إجتماعات الجمعة من مساء ١٦/ ١٠/ ١٩٧٠ إلى مساء ١٧/ ١١/ ١٩٧٠ . تنشر لك الثلاث الأولى منها .

تشرح كيف أن حياة الخاطىء هى غفوة ، بعيداً عن الله ، لا يحس ما هو فيه ، ولغفوته هذه أسباب ، ينبغى معرفتها ، لكى نتوقاها ...

فإن استيقظ الخاطىء من غفلته ، ما هى الدوافع التى تدفعه إلى اليقظة ؟ وما هى المشاعر التى تصاحب اليقظة .

أما كيف يحافظ على هذه اليقظة ، فنتركه لكتابنا (السهر الروحى) . ونكتفى الآن بأن نستودعك هذه الصفحات .

شنوده الثالث

فهرست

صفحة

مقدمة ٥

معنى اليقظة ٩

١ ـ أسباب الغفوة الروحية ١١

٢ ـ دوافع اليقظـــة ٣٧

٣ ـ مشاعر تصاحب اليقظة الروحية ٦٥

معنى اليقظة :

الإنسان الذى يعيش فى الخطية ، بعيداً عن الله ، يشبهه الكتاب المقدس بإنسان نائم ، لا يدرى بنفسه ولا بحالته ، كيف هو! فهو محتاج أن يستيقظ . لذلك يقول الرسول « **إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم ...** » (رو ١٣ : ١١) .

أى أنه كفانا نوماً . كفى الوقت الذى قضيناه متغافلين عن روحياتنا وخلاص أنفسنا ، ويجب الآن أن نستقيظ ، الآن بلا تأجيل ولا تأخير. وهكذا يتابع الرسول كلامه فيقول : « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم ، فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا . قد تناهى الليل ، وتقارب النهار. فلنخلع أعمال الظلمة ، ونلبس أسلحة النور» .

والكنيسة أيضاً تستخدم معنا نفس التعبير...

فى نصف الليل ، تضع لنا تسبحة ، تقول فى أولها « قوموا يا بنى النور، لنسبح رب القوات ، لأنه أنعم علينا بخلاص نفوسنا » قوموا ، استيقظوا جسدياً وروحياً ، لكى نسبح ... ولذلك نقول بعد ذلك للرب فى نفس التسبحة « عندما نقف أمامك جسدياً ، انزع من عقولنا نوم الغفلة . أعطنا يارب يقظة ، لكى نفهم كيف نقف أمامك وقت الصلاة ... ونفوز بغفران خطايانا » .

نعم ، إنه نوم الغفلة ، الذى نريد أن نستيقظ منه ...

بل أن القديس بولس لا يعتبره نوماً فقط ، بل ما هو أكثر من هذا . إنه موت ، لأن الخطية هى موت . والخطاة « أموات بالخطايا » (أف ٥ : ٢) . لذلك يقول الرسول « **استيقظ أيها النائم ، وقم من الأموات ، فيضىء لك المسيح** » . (أف ٥ : ١٤) . قم ، أنتبه لنفسك . ارجع إلى الصحو ، لتدرى ما أنت فيه . أستيقظ وأترك أعمال الظلمة ، فيضىء لك المسيح ، وتنتقل من الموت إلى الحياة (١ يو ٣ : ١٤) .

الشخص الخاطىء كإنسان مخدر ، لا يدرى ما هو فيه ...

أحساسه الروحى معطل ، فهو لا يحس ما هو فيه ، ولا ماذا يفعل ، ولا خطورة وجسامة ما يفعله . على رأى المثل « سارقاه السكين » . هو فى غفلة ، خارج نفسه . ولذلك حسنا قيل عن الإبن الضال ، لما استيقظ روحياً ، إنه « رجع إلى نفسه » (لو ١٥ : ١٧) .

الإنسان فى الخطية ، فى دوامة ، ينسى فيها روحه ، و ينسى الله ، و ينسى القيم والمثل ، إنه فى غفوة ، لا يشعر بكل هذا . وربما يظن نفسه فى ملء اليقظة ، ويملأ الدنيا نشاطاً وحركة ! بينما الملائكة تصرخ : ما بال هذا الإنسان نائماً ؟! وإلى متى يستمر فى نومه ؟! إنه يحتاج إلى من يوقظه ، يوقظ ضميره وروحه . يقيمه من بين الأموات ، ليضىء له المسيح ...

حقاً إن الشيطان ، حينما يريد أن يوقع شخصاً ، يخدر ضميره أولاً ، أو يقوده بطريقة ما إلى حالة الغفوة والغفلة هذه ، التى تعطل الحس

الروحى ، فلا يدرك ما هو فيه .

هنا وأر يد أن أقدم لك صورة ، لحالة الخاطىء فى غفلته ...

تصوروا كرة تتدحرج من فوق جبل عالٍ ...

كرة القيت من فوق جبل عالٍ ، فأخذت تتدحرج تباعاً ، فى إندفاع مستمر من فوق إلى أسفل ، وهى لا تملك ذاتها لتقف وتقول أين أنا ؟ إنما هى تتدحرج وتتدحرج ، بلا فكر ، بلا وعى ، بلا حس ، بلا إرادة ... قوة الدفع تجذبها باستمرار إلى أسفل ، خطوة تسلمها إلى خطوة ، ودحرجة تسلمها إلى دحرجة ، بلا هوادة . وهى لا تعرف إلى أين يقودها كل هذا ... ! ولا تشاء أن تقف ، أو لا تستطيع أن تقف ... ولكن إلى متى ؟

إلى أن يصدمها حجر كبير فى إنحدارها . يعترض طر يقها و يوقفها ، و يقول لها إلى أين أنتِ ذاهبة ؟ إلى أين تتدحرجين ؟ أفيقى إلى نفسكِ . إستيقظى . هذا الإنحدار المتتابع يقودكِ إلى الضياع ... !

فتقف . وقد تنظر ، فتجد أنها هبطت كثيراً عن مستواها السابق ... هكذا الخاطىء ، يحتاج إلى أن يستيقظ . وإن لم يستطيع ، لا بد من أن يوقظه غيره . اسمعوا ماذا يقول المزمور « أنا اضطجعت ونمت ثم استيقظت ، لأن الرب معى . لابد من اليقظة ، ومن معونة الله فيها .

وسعيد هو الإنسان ، الذى لا يطول به النوم ...

وكما يقول المرتل فى المزمور « أنا استيقظ مبكراً » (مز٥٧) .

كل إنسان معرض للغفوة فى حياته الروحية . فترات قد تمر على الكل ، مع اختلاف فى النوعية والمستوى . أما الروحيون فإنهم يتنبهون بسرعة ، و يفيقون لأنفسهم ، و يرجعون إلى طقسهم الأول ...

وهنا نود أن نسأل : ما هى الأسباب التى تؤدى إلى الغفوة أو الغفلة الروحية ؟ وما هى الدوافع التى تدفع إلى اليقظة ؟

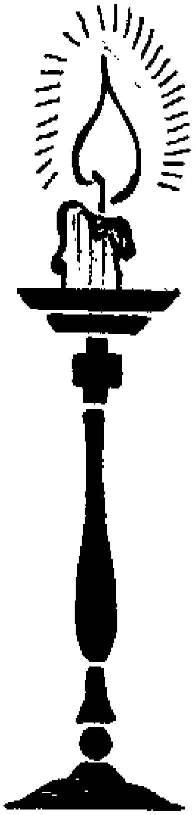

[١]
أسباب الغفوة الروحية

- ■المشغوليات..
- ■العاطفة المسيطرة .
- ■البيئة المنحرفة .
- ■العقـــل .
- ■اللـــذة .

أسباب الغفوة الروحية :

لا شك أن هناك أسباباً ... يلزمنا أن ندرسها ، لكى نحترس منها . فما هى ؟

منها أسباب خارجية ، تتعلق بالمحاربات والعثرات ، والبيئة المحيطة ، والظروف . ومنها أسباب داخلية ، تتعلق بطبيعة الإنسان ذاته ، ونوعية قلبه وفكره . و بعض هذه الأسباب يزحف إلى الإنسان بطيئاً بطيئاً ، بطريقة لا تكاد تُحس . بينما البعض قد يهجم فى عنف ، ويحتوى القلب بسرعة ، فينسى كل شىء إلآه ... ولنتناول كل ذلك بشىء من التأمل ونفحصه .

ولعلنا نذكر فى مقدمة هذه الأسباب ، المشغوليات .

١ ـ المشغوليات :

المشغوليات طريقة ماكرة من طرق العدو فى تحطيم الحياة الروحية . وأهم ما فى مكرها أنها :

لا تحارب الروحيات ، إنما لا تعطيها مجالاً ، فننساها ... !

ومثال ذلك ، قد تجد نوعاً من الناس مشغولاً باستمرار . لا يجد وقتاً يجلس فيه إلى الله ، للصلاة ، للقراءة ، للتأمل ، للتسبيح ، أو لأى عمل

روحى . كما لا يجد وقتاً يجلس فيهٔ إلى نفسه ، ليفحص حالته ، أين هو، وكيف هو؟ و بالتالى لا يجد وقتاً لتغيير حالته ، فهو لا يدرى ما حالته !

إن الإبن الضال كانت بداية رجوعه ، أنه جلس إلى نفسه ، وفحص الوضع الذى هو فيه ، فقال « كم من أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا هنا أهلك جوعاً » . ولما عرف سوء حالته بهذا الشكل ، إستطاع أن يجد الحل ، وهو « أقوم وأذهب إلى أبى » (لو١٥ : ١٧، ١٨) .

من حكمة الشيطان ، أنه لا يترك لك وقتاً لروحياتك .

إن الشيطان حكيم فى الشر ، و يدبر خططه بتعقل . وقد قيل عن الحية إنها كانت « أحيل جميع حيوانات البرية » (تك ٣ : ١) ... فما هى الحيلة التى يستخدمها هنا ؟

بالنسبة إلى بعض الناس ، قد يكون الاغراء الواضح بالخطية سلاحاً مكشوفاً لا تقبله ضمائرهم المتيقظة ، إذن لا مانع من ارجائه حالياً ، ريثما يتم تخدير هذه الضمائر . وما العمل إذن ؟

يرى الشيطان أن الناس إذا خلوا إلى أنفسهم ، فمن الجائز أن يفكروا فى روحياتهم ، أو ينصتوا إلى صوت الله يدعوهم إليه ، أو أن يرجعوا إلى ضمائرهم فتقودهم إلى الله ...

إذن لابد من مشغولية ، ولو كانت صالحة فى ذاتها !

مثال ذلك : تلميذ مجتهد ، مشغول فى دراسته وفى مذاكرته طول

الوقت ، لا يبقى له وقت لشيء آخر . فإن تخرج ، تشغله الوظيفة والعمل الإضافى والدراسات العليا ، ثم بعد ذلك ينشغل فى تكوين بيت ، وفى الزواج ، ومشغولية الأسرة والأولاد ، بحيث لا يجد وقتاً للعمل الروحى ... ! وأنت فى كل ذلك تعاتبه ، كيف لا يقتطع وقتاً لله ؟ وهو يجيب : وماذا عن تفوقى ؟ وعن اخلاصى لدراستى وعملى وأسرتى ؟ وهل الاخلاص للعمل والتفانى فيه يعتبر خطية من الناحية الروحية ؟ والإجابة كلا طبعاً ، إنما الخطأ فى الآتى :

١ ـ المشغوليات تستوعبك تماماً ، وتأخذ كل وقتك وكل فكرك .

٢ ـ لا توازن فى توزيع وقتك ، فلا وقت لروحياتك .

٣ ـ المشغوليات تتلاحق وتتتابع ، بحيث يبدو أنها لا تنتهى .

إذن يجب أن تكون عادلاً فى توزيع وقتك : كما أنك مطالب بالاخلاص لعملك ولأسرتك ، كذلك عليك أن تكون مخلصاً لحياتك الروحية ولعلاقتك بالله ، ولابد أن تخصص لذلك وقتاً مهما كان الأمر...

عجيبة هى المشغوليات فى عصر التكنولوجيا الذى نعيش فيه ، كل طاقات الإنسان تتحرك بسرعة عجيبة ، كما تتحرك الآلة فى هذا العصر الآلى . الكل يجرى ، وراء عمل ، ووراء ترفيهاته ، ووراء حياته الأسرية وحياته الخاصة . الكل فى دوامة عجيبة ، لا تعرف السكون ولا الهدوء ، ولا تجد راحة ، ولا وقتاً للروحيات .

حتى إن تفرغ الناس من العمل ، هناك الترفيهات والمسليات تشغلهم .

إن وجد الإنسان فراغاً من الوقت فى منزله ، تلاحقة المشغوليات من الزيارات ، والجيران ، والأحاديث ، وفض المشاكل العائلية ، والمناقشات الكثيرة فيما يستحق وما لا يستحق ، يضاف إلى هذا الراديو والتليفزيون ، والجرائد والمجلات ، وبحث موضوعات التموين والسياسة ، وما لا ينتهى من أحاديث ...

وإن وجد الشخص فراغاً من الوقت خارج البيت ، فهناك المقهى والنادى والجمعية ، ولقاء الأصدقاء ، وهناك السهرات والحفلات ، والرياضة ، والسينما والمسرح ، والمتنزهات والفسح ...

وفى كل ذلك تنسى الحياة الروحيــة وينسى الله أيضاً .

ربما لا يأتى الله على فكرك وقتذاك . فمن أين يأتى ؟ وإن تذكرت الله وواجباتك الروحية ، تقول « حينما أنتهى مما أنا فيه ، سأجد وقتاً حتماً لعملى الروحى » . ولكنك بما أن تنتهى مما أنت فيه ، حتى تلاقيك مشغولية أخرى ، فتنشغل بها ، وتلفك الدوامة ، وتسحبك بعيداً عن الله ... وإذا بالكرة ما تزال تتدحرج وتتدحرج ، فى إنحدار مستمر ، لا تتوقف ، ولا تملك ذلك ...

وإن أردت أن تجلس مع نفسك وسط كل ذلك :

قد لا يمنعك الشيطان ، بل يقول لك : « وأنا أيضاً سأجلس معك ،

حتى إن وقفت تصلى سأقف معك أساعدك » . وهكذا يذكرك بعشرات الموضوعات التى يسرح فيها عقلك ، وتعاود التفكير فيها . وتجد أنك لا تصلى ، ولا تجلس مع الله أثناء جلوسك مع نفسك . فمازلت فى مشغولياتك ! ولماذا ؟

لأن المشغوليات استقرت فى عقلك الباطن ، وتعمل فيه .

لم تعد فقط مشغولاً من الناحية العملية ، ومن جهة الوقت ، وإنما من جهة الفكر أيضاً . كل ما يشغلك دخل إلى عقلك ، وإستقر فيه ، واحتل بؤرة اهتمامك . وإن حاولت ، فى فترات متقطعة ، أن تخلو إلى ذاتك ، تخرج من عقلك الباطن صور واخبار وموضوعات تشتت ذهنك ، وتجذبك إليها ، فما أسرع أن تنجذب ، وتظل الكرة تتدحرج ... حتى فى وحدتك وخلوتك ، يمكن أن يربكك الشيطان ، و يسرح بك فى ميادين متنوعة لكى يشتت تفكيرك ، و يدخلك فى طياشة الفكر .

عالم مشغول ، وسيظل مشغولاً ، إلى أن تأتى الأبدية .

الكل يدور فى دوامته . والشيطان يجهز لكل إنسان الدوامة التى تناسبه ، والتى يتحرك فيها بلا توقف ، و يظل يتحرك ، إلى أن يأتى الموت ، فيسحبه منها ، على الرغم من إرادته ... والعجيب أنه ربما يوجد أشخاص فى ساعات الموت ، يكونون مشغولين بأمور أخرى بعيدة عن خلاص أنفسهم ! ويخيل إلىّ أنه حينما تأتى الساعة الأخيرة ، ساعة الأبدية ، و يأتى السيد المسيح فى مجيئه الثانى ، و يبوق الملائكة بالبوق ، يكون الناس لا يزالون منهمكين فى مشغولياتهم ، متعلقين بها ، لا يحاولون الفكاك منها ، ولا

بـر يدون ..! عجيب أن يظل الناس فى مشغولياتهم ، حتى إن أتاهم الموت يجدهم مشغولين لا يخرجون من دواماتهم !!

كل منهم ، يحب دوامته التى يحركها ، أو التى تحركه !

عـالم مـشـغول . متى تراه سيفرغ من هذه المشغولية ، و يعطى ولوجزءاً مـن وقـتـه لله ؟ متى ؟ متى يحـصـل على فـتـرة هدوء أو سكون ، يقضيها فى التأمل ، لأجل راحته النفسية وراحته الروحية ؟

متى نخرج من المشغوليات ، ونعطى وقتاً لله ؟!

متى يـسـتـر يح اللـسـان مـن الـكـلام ؟ ومتى تـسـتر يح القدمان من الجرى ، والـيـدان مـن الشغل ، و يتفرغ الإنسان إلى الله ، ويهدأ ويجد وقتاً لروحه ... ؟ متى يعتبر الوقت الذى يقضية مع الرب ربحاً له ، ومتعة لنفسه ، ولـيـس اقـتـطـاعـاً مـن أمـور الـعـالم التى يحبها . إن الله انـقـاذاً للناس من مـشـغـولـيـاتهم ، قال لهم : إننى أر يد أن أريحكم . ولكنكم لا تر يدون أن تريحوا أنفسكم ، لأنكم دائماً فى مشغولية . ماذا أفعل إذن من أجلكم ؟

أعطيكم يوماً فى الأسبوع ، تتحررون فيه من مشغولياتكم .

يـكـون يـومـاً مـقـدسـاً لى « عـمـلاً من الأعمال لا تعملون فيه » (لا ٢٣: ٣) . إنـه يـوم لأرواحكم . حتى إن غفوتم طوال الأسبوع ، تستيقظون فيه . ولكن هل استجاب الناس لبركة يوم الرب ؟! إنهم مازالوا مشغولين فى يـوم الرب أيضاً . الأعمال الخاصة التى لم يستطيعوا أن ينجزوها فى أيام الـعـمـل الـرسـمـى ، يـعـمـلونها فى يوم الرب . وإن إستطاعوا أن يتفرغوا ،

يقضون هذا اليوم فى ملاهيهم ومتعهم . و بدلاً من أن يسموه اليوم المقدس holiday يسمونه Week-end أى نهاية الأسبوع . وقد تكون مشغولياته وعثراته أكثر من باقى أيام الأسبوع . وتستمر الكرة تتدحرج فيه ، ولا يكون مجال للروح !

الله يريد أن يقضى وقتاً معنا ، ونحن لا نريد !

كإنسان خطب فتاة . وكلما يزورها لكى يقضى معها وقتاً ، من فرط محبته لها ، يجدها مشغولة فى ترتيب أمور البيت ، فى الكنس والمسح ، وغسل الملابس وكيها ، وأمور الطهى والتنظيف ... ويحاول جاهداً أن يقنع خطيبته بأن تجد وقتاً تجلس معه ، ولا فائدة ، إنها مشغولة باستمرار!! هل تظنون مثل هذه الخطيبة تستحق عريسها الذى يحبها ؟ أليس من الحكمة أن تغير أسلوبها ... ؟

ماذا يفعل هذا الخطيب ، إن كان فى كل مرة يأتى إلى خطيبته ، يجدها مشغولة عنه لا تلتفت إليه .

عجيب أن الله يريدنا ، ونحن لا نريده ، عجيب أن ننشغل عن أخلص حبيب . يكلمنا ، ونحن لا نجيب . يدعونا إليه ، فلا نستجيب عجيب هذا حقاً عجيب ...

شاب يسأل : أنا مشغول فى دروسى ، فهل أترك الخدمة ؟! ... كيف تترك الخدمة يا إبنى ؟ أليس هناك يوم فى الأسبوع هو يوم الرب ، تخدم فيه ؟ أنت لا تملك هذا اليوم ، حتى تشغله بالدروس أو غيرها . إنه ملك

للـرب . سـمـح الله أن كـل دول الـعـالم ، وكـل الإدارات والمصالح والمؤسـسات ، تمنح العاملين فيها يوم عطلة فى الأسبوع . إنه يوم الرب . لا يجوز أن نـنـشـغـل فيه بغير الرب . وإلاّ كانت هذه المشغولية تحمل اعترافاً ضمنياً ، بأن الله ليست له أهمية فى قلبك وفى تقييمك لمشغولياتك !

وعجيب أننا ننشغل عن الرب ، ونلوم المنشغلين به !

مـثـال مـرثـا أخـت مـريم ، إنشغلت عن السيد المسيح بأعمال البيت وأمـور الـضـيـافـة . ولم تكتف بهذا ، إنما بكل تأثر وجهت لومها إلى مريم ، لأنهـا جـلست عند قدمى الرب تستمع إليه ! وكأنها تقول عن أختها . لماذا تجـلـس فى هـدوء ؟ لا تنشغل مثلى ومعى ؟ هل جلوسها مع الرب أهم من عـمـلـها معى . لذلك وبخها السيد المسيح على مشغوليتها هذه ، وقال لها : أنـتِ تهـتـمين وتـضـطربين لأجل أمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد (لو١٠ : ٤٠ ، ٤١) . وأصـبـحـت مـرثـا مثالاً للمشغولية التى تعطل عن الجلوس مع الرب .

ومـثـال هـذا أيـضـاً الـذيـن تجـرفـهـم أمور العالم ، حتى ما يجدون وقتاً للـصـلاة . فإن وجدوا راهباً متوحداً قد تفرغ للجلوس مع الرب ، فى صلاة وتـأمـل ، يـصـيحون قائلين : فلينزل ليخدم معنا ! و يتهمون الرهبان بحياة الـكـسـل ، وعـدم الأهـتـمـام بـالكنيسة ، وعدم المبالاة بخلاص الأنفس المحتاجة !!

إنهم لا يجدون وقتاً للصلاة ، و يلومون الذين يصلون . و يصيحون فيهم

كما صاح فرعون فى الشعب الذى أراد أن يخرج ليعبد الله « متكاسلون أنتم متكاسلون ، لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب » (خر٥ : ١٧) .

المشغولية عن الرب زحفت ، حتى دخلت مجال الخدمة أيضاً !

فترى مثلاً خادماً كبيراً ، مسئولاً عن فرع هام من فروع الخدمة ، ومع ذلك لا يجد وقتاً للصلاة والتأمل والجلوس مع الله . فتلومه على ذلك . ولكنه يصيح : العلك لا تعرف مدى المسئولية الملقاه عليَّ ، ومدى المشغولية التى أنا فيها : أمامى كراسات التحضير، وفصول أعداد الخدام ، والمكتبة ، والنادى ، والصور، ووسائل الإيضاح ، وتنظيم الأنشطة المتعددة والافتقاد ، واجتماع الشبان ، ومشكلة المتكلمين ... من أين أجد وقتاً للصلاة ؟! اعذرنى ...

وبهذا تجف روح الخادم ، بينما يظن أنه فى عمق الخدمة !

وتصبح الخدمة لوناً من النشاط ، خالية من الروح ، كل تنظيماتها تدخل فى حدود الأوامر والنواهى . وتصبح الكلمات التى تلقى عن الصلاة والتأمل والعمل الروحى ، مجرد كلمات من الكتب ، بلا خبرة روحية ، وبلا ممارسة ، وبدون تذوق لله نفسه .

وقد ينطوى تحت هذا المثال أيضاً كثير من العاملين بنشاط كبير فى المجال الدينى ! حتى أن الله يبحث عمن بقى له ، إن كان الكل ، داخل بيته وخارجه ، منشغلين عنه ؟!

هنا وأتذكر بعض أبيات شعرية ، قلتها فى هذا المجال :

دخلت البيت لا مرثا بساحته ولا مريمْ
فمن للرب فى البيت وكيف إذا أتى يُخدمْ؟
ومن يهفو لمقدمهِ ومن يجرى ومن يبسم ؟
ومن يرنو لطلعتهِ ومن يصغى ومن يفهم ؟
ومن بكلامه يشدو طوال الليل أو يحلم ؟

إنها حقاً مأساة ، أن العالم كله منشغل عن الله ... حتى بعض الذين كرسوا أنفسهم له ! ... بالكاد يجاهد الناس لكى يحصلوا على وقت يقضونه معه ! وأى وقت ؟! وقت تتنازعه أفكار العالم واهتماماته .

لذلك جميلة جداً هى صلاة نصف الليل ، التى يصليها الآباء الرهبان فى الأديرة ، لو أمكن أن يصليها أحباء الله فى المدينة ... يرفع الإنسان يديه إلى السماء ، و يقول للرب : هوذا الكل نائم ، والجو ساكن ، يمكننى يارب أن أنفرد بك ، فى هدوء هذا الليل ، و بدون عائق من أحد ، قبل أن يصحو الناس ، وتعود الضوضاء إلى المدينة ، و يعود الصياح والضجيج . أنا هنا أخلو بك ، وأفتح لك قلبى ... كما قال المزمور « فى الليالى إرفعوا أيديكم أيها القديسون ، و باركوا الرب » .

حسن أن يفعل أحد هكذا ، ولكن فى الواقع نادراً ما نجد ... تسأل زميلاً لك « هل تصلى صلاة باكر ؟ » فيقول لك : ما أن استيقظ حتى أستعد بسرعة للذهاب إلى العمل ، قبل زحمة المواصلات ... ! وتسأله عن صلاة النوم ، فيقول لك : أرجع إلى بيتى متأخراً ، متعب الجسد جداً ، التى

بجسمي على فراشي لأنام!

والله ؟ هل هو في آخر القائمة بالنسبة إلى اهتماماتك ؟
لا شك أن الموضوع يحتاج إلى تنظيم الوقت ، وتوفير الوقت .

حاول أن تصحو مبكراً بعض الشيء ، ولو نصف ساعة ، لكي تبدأ اليوم بالصلاة وقراءة الكتاب . ولا مانع من أن تنام مبكراً أيضاً . وتحتاج أيضاً أن توفر وقتاً من المشغوليات التي يمكن الإستغناء عنها أو عن بعضها خلال النهار... يمكن تقليل بعض الوقت الذي تعطية للجرائد والمجلات والإذاعة ، مع ما تغرسه فيك كل هذه من أفكار، أو ما يتبعها من أحاديث ... يمكن أن تختصر بعض اللقاءات والزيارات ، وتلغى المقابلات والجلسات غير البناءة ، وتعيد النظر في الوقت الذي تعطيه للترفيهات والمسليات . ولاشك أنك ستستطيع أن تجد وقتاً لروحياتك .

المهم أن تقتنع بأهمية العمل الروحي . وحينئذ ستجد وقتاً .

انزع نفسك من الكلام الكثير مع الناس ، لكي تتكلم ولو قليلاً مع الله ... الذي ينتظرك .

إن أية مشكلة طارئة مفاجئة تقابلك ، لابد ستفرغ لها وقتاً للتصرف فيها ، مع أنك ما كنت تعمل لها حساباً ، وما كانت تخطر على بالك ، ذلك لشعورك بأهمية الأمر. كذلك إن شعرت بأهمية خلاص نفسك ، وأهمية علاقتك بالله ، لا بد ستنظم وقتك ، لكي تحتفظ بالتوازن بين عملك في العالم وعمل الروح . وهذا التوازن لازم جداً ، حتى لا يطغى العالم على روحياتك .

نظم وقتك ومشغولياتك ، حتى لا تسحبك الدوامة بعيداً ...

ولا تعتذر بالمشغوليات ، فإن داود النبي ، على الرغم من كل مشغولياته كملك وقائد وقاض ، كان يقول « سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك » . وكان يقضي الليل مع الله (مز١١٨) . لم يعتذر داود بالمشغوليات ، بل على الرغم من كثرتها ، أستطاع أن يجد وقتاً طويلاً ودسماً للمزمار وللقيثار وللتسبيح والترتيل . و يشوع بن نون خليفة موسى ، على الرغم من مسئولياته الكاملة عن الشعب بأسره ، قال له الله « لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك ، بل تلهج فيه النهار والليل » (يش ١:٨) .

فهل أنت في مثل مشغولية داود الملك و يشوع القائد اللذين وجدا وقتاً لله ... ؟!

تحدثنا عن المشغوليات التي تسحب الناس بعيداً عن الله ، فهل يوجد غيرها مثلها ؟ نعم توجد :

العاطفة المسيطرة :

إن كانت المشغوليات تملك الوقت ، ولا تعطي فرصة لله ...
فالعاطفة تملك القلب والفكر أيضاً ، بعيداً عن الله ...

الشيطان لا يكشف أوراقه على الدوام ، فهو لا يمنع الإنسان صراحة من الوجود مع الله ، إنما قد يقدم له عاطفة ما تشغل كل قلبه وفكره وأحاسيسه ومشاعره ، وتخدره تماماً ، وتستحوذ على كل اهتماماته ، ومعها

لا يكون لله مجالاً فى داخله . ومع هذه العاطفة تظل الكرة تتدحرج وتتدحرج ، وهى لا تدرى ما هى فيه ، أو إلى أين هى سالكة ...

تماماً كما يكون معنا طفل ، نخشى أن يعطلنا بصراخه وضجيجه وكلامه ، فنقدم له لعبة يلهو بها ، فينشغل بها عنا ويهدأ ... كذلك يقدم الشيطان مثل هذه العاطفة كلعبة يلهو بها القلب بعيداً عن العمل الروحى ... و يبحث الله عنك فلا يجدك ، و يناديك فلا تسمعه ، لأنك مشغول أو مخدر بهذه العاطفة التى تسربت إلى قلبك .

إنها محبة معينة ، من أى نوع كانت ...

لا يشترط أن تكون محبة من النوع الذى بين فتى وفتاه ، أو تعلق قلب بقلب ، إنما هى عاطفة من أى نوع ، والمهم أنها تملك المشاعر كلها وتوجهها فى مسارها .

مثل هواية معينة تسيطر على الإنسان ، وتملك كل وقته واهتمامه ... هواية كالكرة ، أو العوم ، أو التجديف أو السباق ، أو كالرسم ، أو الكتابة ، أو التمثيل ، أو أى فن من الفنون ... أو محبة للعبة من اللعب ، أو تسلية من التسليات ، أو قراءة خاصة فى الفلسفة أو علم النفس مثلاً ... أو قد تكون هذه المحبة محبة الإنسان لعمله ، تحولت إلى هواية تملك كل وقته وكل فكره . لا يتحدث مع أحد ، حتى فى بيته ، إلاّ عن هذا العمل وأخباره وتفاصيله ومدى نجاحه أو المشاكل التى تعترضه . هو عنده كل شىء ...

أو قد تكون محبة للشهرة أو للظهور أو للعظمة ، تجعله حتى فى وقت فراغه يسبح فى أحلام اليقظة ، أو يؤلف حول نفسه قصصاً خيالية يعيش فيها ، و يترجم رغباته إلى حكايات وتصورات ...

أو قد تكون هذه العاطفة التى تشغله هى ثورة لتغيير الأوضاع ، أو ما يسميه برغبة فى الإصلاح ، حسب مفهومه الخاص طبعاً ، تجعله ينتقد كل شىء ، و يغضب ، و يدين ، و يقترح أقتراحات جديدة ، و يتصور أوضاعاً جديدة للجو الذى يريد أن يصلحه ، و يقضى الوقت اقناعاً لغيره بوجهة نظره .

أو قد تكون هذه المحبة إنتماء لجمعية أو هيئة معينة ، أو فكر ما ... المهم أن تياراً جارفاً يكتسح قلبه و يوجهه فى حماس وفى نار داخلية تتقد ، وتظل الكرة تتدحرج فى عنف ، وهو يعلم بذلك ، بل و يسر به ، لأن محبة هذه الدحرجة قد دخلت قلبه وملكت عليه .

و يبحث الله عن مكان فى قلبه ، فلا يجد ...

قلبه مشغول ، على الدوام ، بهذه العاطفة التى استولت عليه ، والتى يصحو و يبيت مفكراً فيها ، والتى التهمت كل محبة أخرى ، تجدها فى طريقها ، حتى محبة الله ... إنها كالعثاء (العتة) التى تلتهم الملابس ، أو كالسوس الذى يأكل الحبوب ، أو كسرطان الدم الذى يأكل الكرات الحمراء ... تظل تلتهم كل شىء ، حتى تبقى وحدها . و يشعر هذا الإنسان أن هذه العاطفة هى الوحيدة التى تشبعه ! وتسأل عن مركز الله فى قلبه ،

أو مركز الروح أو الأبدية ، فلا تجد إلاَّ هذه الحقيقة المرة :

لقد طردنا صاحب البيت ، وأسكنا فى مكانه الغرباء ... !

الله ، الذى هو المالك الحقيق لقلبك ، أصبح لا يجد له مكاناً فيه . إنشغلَ القلب تماماً بعاطفة غريبة ، خدرت كل عواطفه الروحية ، فنامت وغرقت فى النوم ... والعجيب أنه ليس من السهل أن توقظ مثل هذا الإنسان ، لأنه سعيد بنومه . اليقظة قد تتعبه ، لأنها تحرمه من (محبته) !!

لذلك ما أجمل حياة الرهبان القديسين ، الذين قطعوا من قلوبهم كل محبة أخرى غير الله ، وجعلوا شعارهم :

الإنحلال من الكل ، للإرتباط بالواحد (الذى هو الله) .

هؤلاء أحبوا الله ، أكثر من كل محبة أخرى مهما كانت بريئة ، احبوه أكثر من الأب والأم والأهل والأقارب ، بل حتى أكثر من أنفسهم ، حسب الوصية الإلهية . (مت ١٠ : ٢٧-٣٩) . وكأن كل واحد منهم يقول لله : لا أريد محبة أخرى تشغلنى عن التفرغ لك . فليس لى سواك . أنت الذى تشغل فكرى وقلبى ، وتشغل حياتى ووقتى ، وتشغل حواسي وعواطفى . أنت شغلى الشاغل . قلبى ملآن بك ، وفرحان بك ، ولا يعوزه أحد غيرك . لا يوجد فيه فراغ يتسع لأحد غيرك .

هذه مشاعر القديسين سكان البرارى . ولكن الكل ليسوا هكذا . دوامة العالم تجذبهم ، وتلفهم داخلها . حتى إن جلسوا مع الله ، لا يكون

ذلك بكل قلوبهم ، لأن عواطف أخرى كثيرة تنافس الله فى القلب ...

ولكن هل العواطف والمشغوليات هى الوحيدة التى تخدر الإنسان ، وتجذبه بعيداً عن الله ؟ كلا ، فهناك أيضاً البيئة .

البيئة المنحرفة :

طبعاً ، ليست كل بيئة تبعد الإنسان عن الله ، فهناك بيئات مقدسة لها تأثير روحى إيجابى . ولكننا هنا نتكلم عن البيئات غير الروحية ، التى لم تذق فى حياتها ما أطيب الرب ! البيئات المعطلة ...

مسكين الإنسان الذى كلما يسير فى طريق الله ، أو كلما يستيقظ لنفسه ، تحاول البيئة بكل جهدها أن ترجعه ، فينام مثلها ، يحيا نفس حياتها البعيدة عن الله ... ناسياً قول الكتاب « لا تشاكلوا هذا الدهر» (رو١٢ : ٢) أى لا تكونوا مثله ، على شبهه وشكله .

البيئة المنحرفة تتهم المتدين بالتطرف . وتعتبر جهاده تزمتاً ، وروحياته شذوذاً ... !

هى تريده مثلها ، يحيا كالمجتمع الذى يعيش فيه ، بنفس الأخطاء ، لا يشذ عن الباقين ... إن كثر تردده على الكنيسة ، يقولون له : كفى تطرفاً ، التفت إلى دروسك أو إلى عملك ... وإن صام ، يقولون له : ستضيع صحتك ، وتفقد نضارتك . أنظر كيف ذبلت ! لو سرت هكذا ، ستصاب بالأنيميا والسل ! إن عامل الناس باتضاع ووداعة ، يتهمونه بضعف

الشخصية . وإن رفض لهوهم وعبثهم ومزاحهم الرديء وترفيهاتهم الخاطئة ، يصفونه بالرجعية ! وإن سلكت الفتاة فى حشمة ، يقولون لها : منظرك أصبح كفلاحة ! من يرضى أن يتزوجك وأنت هكذا ؟! إنك رجعية لا تجارين العصر ، قد عقدك التدين !

كلا ، إن الإنسان المتدين ليس رجعياً ، إنما هو يقبل من العصر ما يناسب مبادئه ومثالياته ، و يترك ما يبعده عن الله . والمدنية ليس معناها التخلى عن القيم الروحية . وليس التمسك بالمثاليات لوناً من الرجعية . إنما هذا الإتهام هو نوع من الإثارة ، يقصد بها الناقدون أن يسمعه الضعيف فيتزعزع .

إن الشخص القوى لا تجرفه البيئة المنحرفة ، بل يصمد و يقاومها .

أما الضعيف ، فربما يساير الجو . إن سمكة صغيرة يمكنها أن تقاوم التيار لأن فيها حياة . بينما جذع شجرة ضخم يجرفه التيار على الرغم من ضخامته ، لأنه ليس حياً . فكونوا أحياء وقاوموا البيئة إذا انحرفت ، ولا تستسلموا لكل جديد إن كان ضد روحياتكم ومثالياتكم .

حقاً ما أخطر البيئة على الإنسان الضعيف . كلما تشتعل فيه محبة الله ، ترجع البيئة فتطفئها . كما تضعفه القدوة السيئة .

وهكذا يتصرف كالباقين ، يلهو معهم و يعبث ، و يشترك فى احاديثهم الخاطئة ، و يلبس شخصيتهم . وكما يقول المثل « أرضهم

مـادمـت فى أرضـهـم ، ودارهـم مـادمـت فى دارهـم » . أو على الأقل إن استـطـاع أن يقاوم ، لا يضمن الاستمرار فى المقاومة . وبمرور الوقت يفقد حـرارتـه الـروحـية ، ويحيا فى فتور دائم ، يتحول بالتدرج إلى غفوة روحية . لأنـه لا يـوجد صوت يبكته على الخطية والفتور ، بل على العكس يوجد من يبكته على العمل الروحى !

كـشاب كلما يحاول أن يستيقظ إلى نفسه ، يمر عليه صديق يضيع كل مـا عـنده من روحيات ، و ينتقل بأحاديثه و بدعوته الملّحة إلى جو آخر ، ثم يخـرجـه معه من منزله ، و يقوده إلى ما كان يحاول الإبتعاد عنه منذ حين . « والشر الـذى لـيـس يـر يـده ، أياه يـفـعـل » (رو٧ : ١٩) . وعلى رأى الشاعر :

متى يـبـلـغ الـبـنـان يوماً تمامه إذا كـنـت تـبـنيه وغيرك يهدمُ

يـضاف إلى الإغراء ، والضغط المعنوى ، والجذب المستمر ، محاولات الإقناع .

الـفـكـر أيضاً يعمل ، عملاً مضاداً للروح . البيئة تحاول أن تقنع هذا المـتـديـن بـخـطـأ مـسلكه ، بوسائل متعددة من التشكيك ، و بسرد قصص وأخـبـار لا تـنتهى . وربما تـلـجـأ إلى تفسير خاطىء لآيات الكتاب ، كما حـاول الـشـيطان فى التجربة على الجبل . ولا أر يد هنا أن أسرد أمثلة من التشكيك وهى كثيرة ... !

مثل هذا الإنسان ، يجب أن يهرب من تأثير البيئة .

يهرب منها فكرياً ، بأن يعرف الرد على شكوكهم ، بالإتصال بشخصيات روحية قوية ، تعطيه رداً على كل فكر خاطئ ، وكل مبدأ غير سليم ، وكل تفسير منحرف لآيات الكتاب ... ويهرب من تأثيرهم بكافة الطرق ، حتى بالنسبة للأسرة ، كأن ينشغل فى عمله خارج البيت ، مع باقى أنشطته ، أو أن ينشغل فى البيت فى مذكرات إن كان طالباً . ويجب أن يخفى ممارساته الروحية عنهم على قدر الإمكان ، كما قيل فى سفر النشيد « اختى العروس جنة مغلقة ، عين مقفلة ، ينبوع مختوم » (نش ٤ : ١٢) . وأيضاً لا يكشف أمانية الروحية . ويحيا فى البيئة كأنه ليس منها . و يشترك أحياناً معهم فيما لا يُتعب ، و يعتذر عن الباقى فى لباقة وحكمة ، أو فى هروب . كما ينبغى أن يكون قوى الشخصية ...

أما الذين يستسلمون لتأثيرات البيئة الخاطئة ، فإنها تتلفهم .

تقتل فيهم كل رغبة روحية ، وتفقدهم روح اليقظة . وإن استيقظوا يعذبون أنفسهم يوماً بيوم ، كما كان لوط فى أرض سادوم ... لما كلمهم عن خلاص نفوسهم « كان كمازح وسط أصهاره » (تك ١٩ : ١٤) . ما أعمق قول الكتاب إن « المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة » (١ كو ١٥ : ٣٣) .

لابد إذن أن يغير بيئته ، أو يهرب من تأثيرها . أو أن يكون قوياً بالدرجة التى يستطيع هو فيها أن يؤثر فى البيئة . ولكننا لا نتكلم هنا عن الأقوياء ، إننا نتكلم عن الذين يحتاجون إلى يقظة روحية ، الذين جذبتهم الدوامة ، وجعلت الكرة تتدحرج إلى أسفل . يجب أن يهرب هؤلاء لأنفسهم ...

كمثال نصيحة طبيب لمريض ...

يقول الطبيب للمريض : يجب أن تغير أسلوبك فى حياتك : لا تأكل كذا وكذا من الأطعمة ، فإنها ضارة بصحتك . تخلص من السمنة مثلاً . لا تجلس كثيراً بل أمش فإن المشي مفيد لك . لا تجلس فى مكان غير متجدد الهواء ... إلخ . ويجب على المريض أن يمتنع عما يمنعه عنه الطبيب ... ليشفى ...

اصحوا إذن لأنفسكم . تخلصوا من مشغولياتكم وعواطفكم وبيئاتكم .

تخلصوا من كل ما يخدر ضمائركم ، كما تتخلصون من المشغوليات والعواطف المسيطرة ، وأيضاً من تأثير العقل المنحرف ، الذى تقوده رغبات خاطئة أو أفكار غير سليمة ...

العقل :

أحياناً يكون العقل سبباً فى ضياع الإنسان روحياً ، إذا ما أساء استعماله لتحقيق شهواته

فكثيراً ما يكون العقل ، جهازاً تنفيذياً لرغبات النفس !

فإذا انحرفت النفس ، ما أسهل أن تجذب العقل خلفها ، كخادم مطيع لها يبرر لها سلوكها الخاطىء .

تشتهى النفس شهوة منحرفة ، أو تود أن تستريح بعيداً عن تعب الجهاد الروحى . وهنا تجد العقل يضع ذاته فى خدمة هذه النفس ، يقدم لها ما

تشاءه من التبريرات ... أدلة وبراهين ، بل وآيات من الكتاب ، ومقتبسات من أقوال الآباء ! حتى تستريح النفس إلى ما هى فيه ، وحتى لا يثور الضمير على خطأ يجب أن تبعد عنه !

مثل هذا العقل ليس أداة فى يد الروح القدس .

قد يكون العقل أداة فى قبضة العالم أو الشيطان . وقد يكون واقعاً تحت تأثير الآخرين ، أو تحت نير الشهوة ، أو قد يدفعه الفهم الخاطىء ، أو المجاملة ، أو المنفعة المادية ...

مثال ذلك عقل ايزابل فى خدمة آخاب ، لما أراد هذا أن يستولى على حقل نابوت اليزرعيلى (١مل ٢١) . أو العقل الذى دفع التلميذين إلى طلب نار من السماء لحرق إحدى مدن السامرة (لو٩ : ٥٤) . أو عقل بطرس الذى دفعه إلى قطع اذن العبد ، بدافع من الغيرة المقدسة ! ولعل من أوضح الأمثلة لهذا أيضاً ، عقل صاحب الوزنة الواحدة الذى برر دفنه لوزنته بدليل منطق (مت ٢٥ : ٢٤) . العقل دفع آدم فى خوفه إلى الإختباء من الله . ولكن الروح لا تفعل هكذا ...

العقل قد يقود إلى الخطأ ، و يقدم لذلك اعذاراً .

ربما يحاول الضمير أن يوقظ الإنسان ، فإذا بالعقل ينيمه ، و يقدم له عذراً عن كل خطأ :

هذا الأمر ما كنت أقصده مطلقاً ، أتى عفواً ، والنية غير متوفرة فيه . وهذه الخطية حدثت على الرغم منى . الضغطات الخارجية كانت شديدة

جداً ، لا يستطيع أحد الفكاك منها ، ويمكن أن تدخل هذه ضمن الأعمال غير الإرادية ! وهذا الخطأ تبرره الظروف ، وذاك تشفع فيه الغاية الحميدة والقصد السليم . وذاك الموضوع طبيعى جداً ، يحدث لكل أحد ، لماذا ندع الضمير يوبخنا عليه ؟! ولا شك أن التدقيق الزائد فى الحكم على أمثال هذا الأمر غير جائز، إنه يقودنا إلى الوسوسة و يفقدنا بساطتنا !! ... وهكذا إلى ما لا ينتهي من التبر يرات .

ما أسهل أن ينخرف العقل ، و ينحاز إلى ذاته ، و يشحذ كل طاقته لمنح سلام زائف للنفس ! والفضيلة التى تقصر فيها ، ما أبسط أن يقول إنها فوق إمكانياتى ، أو الظروف لم تساعد عليها ... !

إنه العقل الذى يشارك النفس فى إنحرافاتها ، و يساعدها .

إنه مجرد جهاز يستخدمه الإنسان . وقد يكون جهازاً للخير أو للشر ، حسبما يوجهه صاحبه . وقد يكون العقل مشحوناً بأفكار تقدمها البيئة أو التقاليد ، أو بأفكار استقاها من الكتب أو من الأصدقاء . فلا نضمن كل ما فيه من الفكر . وبهذا يكون العقل سبباً لضلالة الإنسان ، إن كان يساعده على الخطيئة ، أو يبررها له ، أو يخدره بما يقدمه من أعذار .

وخيال العقل الخصيب قد يساعد على سقوط النفس ...

تشتهى النفس شهوة ، فيتناولها العقل ، و يقدم لها قصصاً لا تنتهى تدور حول صور لتحقيق هذه الشهوة ... مئات من القصص تطول وتستمر . وما أن تنتهى صورة منها ، حتى يقدم صورة أخرى ، فى خصوبة عجيبة .

والنفس نائمة ، تسرح فيما يقدمه العقل من حكايات تشبع شهواتها ... إلى أن يستيقظ الإنسان أخيراً ، فيجد أن العقل قد سرح به فى مجالات لا تنتهى . وقد يشتهى أن يعود فيغفو ، ليسرح به العقل مرة أخرى ، ومرات ...

وما أعجب سرحات العقل التى يقدمها فى أحلام اليقظة !

فى خطية المجد الباطل مثلاً ، ما أسهل أن يؤلف العقل روايات طويلة ، عن أمجاد يصل إليها الإنسان و يرفعه بها إلى أعلى مستوى ، فوق الخيال ، إلى أمور من المستحيل فى الواقع أن تتحقق . ولكن العقل يقدمها فى سرحاته العجيبة ، ليشبع رغبة النفس فى العظمة . وتظل النفس مخدرة مع العقل ، سارحة فى خياله ، إلى أن يوقفها طارق أو طارىء فتستيقظ ، وتسأل أين أنا ؟ وقد تستمر دغدغة هذه الأحلام معها ساعات أو أيام أو سنوات ! وقد يقضى الإنسان عمره كله يحلم و يفكر ، و يسعد بأوهامه .

ليست مشكلته أنه لا يستطيع أن يستيقظ من أحلامه ...
بل مشكلته أنه لا ير يد أن يستيقظ !!

إنه سعيد بأفكاره ، سعيد بأحلامه وأوهامه ، سعيد باشباع العقل لشهواته ! وما أكثر مواهب العقل فى التأليف والتخطيط ورواية القصص والحكايات ! وإن أرادت الروح أن تتدخل لاقناع الإنسان بأخطائه ، يحاول أن يرد بمجادلات عقلية ... ! إنها مشكلة العقلانيين ...

تحدثنا الآن عما يخدر الإنسان من مشغوليات ، وعواطف ، ومن إنحرافات البيئة والعقل . فماذا أيضاً ؟ هناك اللذة ...

٥ - اللــذة :

مـشـغـولـيـات الإنـسـان تسيطر على وقته ، فلا يعطيه لله ، والعواطف تـسـيـطـر على قـلبه ، فلا يعطيه لله . والبيئة قد تسيطر على إرادته ، والعقل يـسيطر عل تفكيره . أما اللذة فإنها تسيطر على حواسه ، ثم تخدره كله ، فلا عـقـلـه يـفكر ، ولا البيئة تستطيع أن تمنعه ، كما أن هذه اللذة تصبح هى كل مشغوليته ، وكل مجال عاطفته . إنها تملكه كله ...

ولا يوجد اصعب من اللذة ، تخدر الإنسان بالتمام ، ولو لوقت !

إنهـا تـسـتـولى على إدراكـه كـلـه ، أو تفقده إدراكه كله ، فينسى كل شىء ، ولا يدرى بنفسه إلاَّ منقاداً وراء هذه اللذة ، التى تلفه فى طياتها .

ولـكـل إنـسـان لـذتـه الخـاصـة . أمـا الإنـسـان الروحى فلذته فى الله وحده ...

سـلـيمان الحكيم عاش فى ملاذ العالم زمناً ، ومهما أشتهته عيناه لم يمنعه عنها ... وأخـيـراً بـعـد أن أتـعـبـتـه اللـذة فترة طويلة ، استيقظ إلى نفسه ، وكـتـب سفر الجامعة وقال « الكل باطل ، وقبض الريح ، ولا منفعة تحت الـشـمـس » . والابـيـقـور يون كانت اللذة هدفهم ، فأنكروا الله والروح والقيامة .

والمشكلة فيمن تخدره اللذة ، أنه لا يحب أن يستيقظ .

تـريـد أن تـوقـظه منها ، فيهرب منك ، أو يقول لك « اتركنى الآن . لم

يحـن الوقت بعد » . إنه مسرور بالغفوة التى هو فيها . يقول لك : اتركنى فى نومى . فإن أحلام هذا النوم ، أشهى من حرمان الواقع ! إنه ير يد أن يظل فى هذا النوم على الرغم من ظلمته ، لأنه يحب الظلمة أكثر من النور...

أمثـال هـؤلاء يرون أن اليقظة الروحية يقظة مر يره ، تتعبهم وتحرمهم مـن لـذاتهـم . لـذلـك هم يهر بون باستمرار من الله ، ومن خدام الله ، ومن كنيسته ، ومن مذبحه...

ومع ذلك فلا بد للنائم أن يستيقظ . فكيف ذلك .

هذا ما سوف نتحدث عنه فى المحاضرة المقبلة إن شاء الله

[إنتهت محاضرة يوم الجمعة ١٦ / ١٠ / ١٩٧٠ التى القيت بالكاتدرائية المرقسية الكبرى بدير الأنبا رو يس]

[٢]
دوافـــع اليقظـــة

- محبة الله للخاطىء .
- رفض الله للخاطىء .
- رفض الكنيسة أو عزلها للخاطىء
- الضيقات والضربات .
- الفشل والمذلة وشماتة الأعداء .
- تدخل القديسين .
- الذكريات المقدسة القديمة .
- تأثير وسائط النعمة .
- التأثر بموت الآخرين .
- السقطة الكبيرة غير المحتملة .

لابد لكل غافل أن يستيقظ ...

والـكـنـيسة تعلمنا أن نقول فى صلاة نصف الليل « انظرى يانفسى ، لـئـلا تـثـقلى بالنوم ، فتلقى خارج الملكوت » « تفهمى يا نفسى ذلك اليوم الرهيب واستيقظى ، واضيئى مصباحك بز يت البهجة » « بما أن الديان حاضر ، اهتمى يا نفسى وتيقظى ، وتفهمى تلك الساعة المخوفة ... » --- إنها دعوة من الكنيسة لليقظة ، ولكن ...

كيف يمكن للنائم روحياً أن يستيقظ ؟

وكـيـف استيقظ الخطاة من قبل ؟ وكيف تحول بعضهم ، ليس فقط مـن خـطـاة إلى تـائـبين ، وإنما مـن خـطـاة إلى قـديسين ؟ ما هى الوسائل والـدافع إلى يقظة الإنسان ، سواء كانت ذاتية أو خارجية ؟ هذا ما نود أن نتحدث عنه الآن .

إن الله لا يترك الإنسان فى غفلته ...

لأنـه يـر يـد أن الجـمـيـع يخلـصـون ، وإلى مـعرفة الحق يقبلون (١ تى ٢ : ٤) . فـالإنـسـان الغافل عن خلاص نفسه ، لا تظنوا أن الله يغفل إيضاً عـنـه ، بـل على الـعـكـس يـسعى إلى إيقاظه ، بأنواع وطرق شتى ، لعل فى مقدمتها أعمال محبته .

١ ـ محبة الله :

أناس كثيرون استيقظوا بسبب محبة الله لهم ... فعلى الرغم من تركهم له ، ونسيانهم له ، وجدوا أن محبته تحصرهم بشدة ، وعطفه يتزايد عليهم ، و يده تقرع على أبوابهم ...

وأحس هؤلاء بالخجل من محبة الله الذى نسوه ، فرجعوا .

أحياناً يخجل الإنسان من محبة الله له ، وعنايته به ، على الرغم من كثرة خطاياه . فتهز هذه المحبة أعماق نفسه ، فيستيقظ ضميره ... يخجل من الله الذى مازال يعطف عليه وهو فى عمق سقوطه ! فيقول له « أنا يارب مكسوف منك . أنت عاملتنى بطريقة أخجلتنى أمام نفسى . إننى أخجل من أن أخطىء إليك مرة أخرى . نبلك يخجلنى ... » .

من ضمن الذين ايقظتهم محبة الله : زكا العشار .

كان غارقاً فى الظلم والقسوة . وذهب ليرى المسيح ، لا حباً ولا إيماناً ، إنما بقصد الفرجة على شخص مشهور تزحمه الجماهير . كل ما كان يريده أن يرى المسيح ولو من بعيد ، وكفى ... من أجل هذا تسلق شجرة ليرى ... وإذا به يفاجأ بأن هذا الرجل العظيم صاحب المعجزات المبهرة ، يقف عنده ، يلتفت إليه التفاتة خاصة ، من دون هذه الآلاف المحيطة به . وأكثر من هذا يناديه باسمه . و يستضيف نفسه عنده ، قائلاً له ـ أمام هذه الجموع التى تحتقر العشارين ـ « يا زكا ، اسرع وانزل ، لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك » (لو١٩ : ٥) .

وإذا بزكا تأسره هذه المحبة وهذا التبل ، من جانب السيد المسيح ، الذى من أجله احتمل تذمر الناس عليه بقولهم « إنه دخل ليبيت عند رجل خاطىء » ... ! هذه اللفتة الكريمة والمحبة الخاصة ، أسرت قلبه ، فاعترف بخطاياه التى لم يعيره بها المسيح ... وتاب عنها وقال : « ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين . وإن كنت قد وشيت بأحد ، أرد أربعة أضعاف » .

ونجحت محبة الرب فى إيقاظ زكا ، و« حصل خلاص لهذا البيت » ...

ومثال ذلك أيضاً تلميذ أهمل دروسه جداً ، لدرجة اليأس الكامل من النجاح . ثم ألقى نفسه أمام الله وبكى ، وهوفى حياة خاطئة بعيدة عن الله . ولكن الرب عامله برحمة عجيبة ، ولم يتخل عنه بسبب خطاياه وبسبب إهماله ، ونجح بشبه معجزة . فلم يستطيع أن ينسى جميل الرب وتاب ...

أو شخص أنقذه الله من فضيحة تحطم حياته ، وستر عليه ، وهوفى عمق السقوط ، فإذا بمحبة الله تعصر قلبه و يقول : محال أن ابعد عن الله الذى عاملنى بهذا الحب العجيب ، وسترنى ...

وكما أن البعض ايقظتهم محبة الله ، هناك من ايقظهم رفضه لهم ، فشعروا بالضياع الذى يعيشون فيه ، واستيقظوا ...

٢ - رفض الله :

ولعل أبرز مثل لذلك : مريم القبطية ...

كانت تعيش فى فساد كامل ، وفى كل يوم تكون سبباً فى إسقاط كثيرين . واستمرت على هذا الوضع سنوات طويلة ، لا تفيق لنفسها ، بل تتمادى . ثم ذهبت إلى القدس للزيارة ، لا لتنال بركة ، إنما لتمارس فسادها فى الزحام ! ولما سارت نحو الأيقونة المقدسة ، شعرت أنها قد تسمرت فى مكانها ، ولم تستطع أن تتقدم كالباقين . وبذلت قصارى جهدها فلم تفلح ، كانت كأنها مربوطة إلى الأرض . ولم يسمح لها الرب أن تنال البركة كغيرها ...

وإذ شعرت برفض الله لها ، تذكرت خطاياها ، وخجلت من نجاساتها ، وأفاقت من تخدير الخطية لها ، وتشفعت بالسيدة العذراء ، ونذرت أن تتوب وتحيا فى طهارة . وهنا فقط شعرت بأنها تتقدم بلا مانع ... وكانت النتيجة أن حياتها تغيرت كلية ، وترهبت ، وعاشت فى نسك عجيب ، منفردة فى البرارى فى حياة السواح ، وصارت قديسة عظيمة صنع الله بها عجائب ، وتبارك منها القديس الأنبا زوسيما القس ، وكتب لنا سيرتها .

إن لطف الله إنما يقتاد إلى التوبة . ولكن إن كان البعض يستغل محبة الله استغلالاً رديئاً ، ويحيا فى استهتار ولا مبالاه ، فهذا قد يوقظه الرفض أو التجربة أو الضربة الشديدة ، وقد يأتى الرفض من الله مباشرة كما فى مثال مريم القبطية ، وقد يأتى من الكنيسة ...

٣ـ رفض الكنيسة :

ومن أمثلة الذين أيقظهم رفض الكنيسة : القديسة مرثا .

كانت إمرأة خاطئة أيضاً ، تعمل فى الملاهى ، وتصادق الأمراء والأثرياء . ولما ذهبت إلى الكنيسة ، منعها الإيبدياكون من الدخول لأنها إمرأة خاطئة لا تستحق دخول الكنيسة . فلما تجادلت معه ، وسمع الأب الأسقف صوت الخصومة ، خرج فاشتكت إليه ، فأفهمها إن بيت الله مقدس لا يدخله من يعيش فى الخطية . فتأثرت جداً ، وقالت له « يا سيدى ، ما عدت أخطىء » . فقال لها : إن كنت صادقة فى هذا ، أحضرى كل غناك إلى هنا . فذهبت وأحضرت كل ملابسها وتحفها ومظاهر ثرائها . فأمر الأسقف بحرق هذا كله ، [لأنه لا يجوز أن تدخل أجرة زانية إلى الكنيسة ، حسب تعليم الكتاب . (تث٢٣ : ١٨)] .

فتخشعت مرثا جداً ، وضربها قلبها بشدة . وقالت لنفسها : إن كانوا قد فعلوا بكِ هكذا على الأرض ، فكم يكون جزاؤكِ فى السماء ؟! وكان هذا الرفض من الكنيسة سبباً ليقظتها فتابت وصارت من القديسات .

ومن الأمثلة المشابهة أيضاً : خاطىء كورنثوس .

طبق عليه القديس بولس الرسول مبدأ « اعزلوا الخبيث من بينكم » (١ كو ٥ : ١٣) . وقال لأهل كورنثوس « لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا » (١ كو ٥ : ١١) . بل أنه أمر أن « يسلّم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد ، لكى تخلص الروح فى يوم الرب » (١ كو ٥ : ٥) .

ولما عزل هذا الخاطىء ، وأحس أنه منبوذ من الجميع ، وأنه غير مستحق أن يوجد فى جماعة المؤمنين ، أحس بالخزى ، واستيقظ إلى نفسه ، وحزن جداً على ما وصل إليه من خطية ، وتاب توبة حقيقية ، حتى أن القديس بولس فى رسالته إلى أهل كورنثوس ، أمرهم أن يمكنوا المحبة لذلك التائب المعزول منهم ، وأن يسامحوه و يعزوه « لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط » (٢ كو٢ : ٧، ٨) .

لأجل ذلك وضعت الكنيسة فى عصورها الأولى قوانين لمعاقبة الخطاه ، لمنفعتهم الروحية . ونظمت ترتيب خوارس الكنيسة تبعاً لذلك . وما كانت تسمح لكل أحد بالتقدم إلى الأسرار الإلهية . وكان هذا المنع يوقظ الضمائر ، إذ يشعر فيه الخاطىء بثقل خطاياه ونتائجها المؤلمة .

و ينبغى فى هذه الأمثلة أو غيرها ، أن نعرف حقيقة هامة من جهة رفض الله للخطاة ، أو رفض الكنيسة لهم ، أو عزلهم عن جماعة المؤمنين وهى :

إنه رفض مؤقت ، وللمنفعة الروحية ، وتعمل فيه النعمة لإرجاعهم .

إنه مجرد إشعار للخاطىء بأنه فى حالة دنسة ، لا تسمح له بالإندماج فى قدسية الكنيسة . وذلك لكى يصحو إلى نفسه و يغير مسلكه ، أو كما قال الرسول « لكى تخلص الروح » ...

أيضاً من دوافع اليقظة الروحية ، الضيقات والضربات :

٤ ـ الضيقات والضربات :

هناك أناس لا توقظهم المحبة ، ولا التوبيخ الهادىء ، وإنما يحتاجون إلى لطمة قوية توقظهم ، فيرجعون إلى الله ، كإنسان فى حالة سكر ، لا يمكن أن يفيق بأن تربت على كتفه فى وداعة وتدعوه أن يصحو... أو مثل فرعون الذى احتاج إلى ضربات شديدة ، فكان يفيق و يقول « أخطأت إلى الرب ... صليا إلى الرب إلهكما ، ليرفع عنى هذا الموت » (خر ١٠ : ١٦) . « أخطأت ... الرب هو البار ، وأنا وشعبى الأشرار» (خر ٩ : ٢٧) ... ومشكلة فرعون إنه كان يعود فيغلبه طبعه ، ولم تكن يقظته نابعة من توبة حقيقية ...

ولعل اخوة يوسف ، مثال للذين ساعدتهم الضيقة على اليقظة .

لقد تآمروا على أخيهم يوسف ، و باعوه كعبد ، وخدعوا أباهم يعقوب وادعوا أن وحشاً قد افترس يوسف . وفى كل ذلك لم يتوبوا ، ولم يفيقوا لأنفسهم . ولكنهم لما وقعوا فى ضيقة شديدة عند شراء القمح ، وأتهمهم الحاكم بأنهم جواسيس ، وحبسهم ثلاثة أيام ، وأمرهم بأحضار أخيهم الصغير (بنيامين) ليثبتوا صدق كلامهم . حينئذ أفاقوا بسبب هذه الضيقة ، وتذكروا خطيئتهم إلى يوسف « وقالوا بعضهم لبعض : حقاً إننا مذنبون إلى أخينا ، الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة ... وأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا ؟ فهوذا دمه يطلب » (تك ٤٢ : ٢١، ٢٢) .

كـذلـك لما دبر يوسف أن يوجد طاسه الفضى فى متاع بنيامين الصغير الـذى ضـمـنـوه لأبيهـم الـشيخ ، وقرر يوسف أن يأخذ منهم بنيامين ، قال يهـوذا لـيـوسـف « مـاذا نـتـكلم ؟ وبماذا نتبرر ؟ الله قد وجد إثم عبيدك » (تك ٤٤ : ١٦) . بالضيقة تذكروا ذنباً مرت عليه سنوات طويلة ...

كم من شخص ، كأخوة يوسف ، إذا أصابته ضيقة يستيقظ ضميره ، و يـقـول « هذا ذنب فلان الذى ظلمته أو ذنب فلان الذى صرفته والدمع فى عينيه ، ولم أشفق ... ؟! »

ومن أمثلة الذين أيقظتهم الضيقات ، الإبن الضال :

لم يـسـتـيـقـظ ضـميره وهو فى حياة المتعة ، ينفق ماله بعيش مسرف ، و يلهو مع أصحابه ... ولكنه لما افتقر واعتاز ، وأشتهى الخرنوب الذى تأكله الخـنـازيـر ولم يجد ... حينئذ أمكن لهذه الضيقة أن توقظه . فيقول الكتاب إنه « رجع إلى نفسه » وقال « كم من أجير عند أبى يفضل عنه الخبز ، وأنا هـنـا أهـلـك جـوعـاً ؟! أقوم وأذهب إلى أبى ... » (لو ١٥ : ١٧) . وهكذا قادته الضيقة إلى اليقظة وإلى التوبة ، وعاد إلى أبيه .

مثال آخر ايقظته الضيقة ، هو يونان النبى .

لـقد هرب من وجه الرب ، ولم يطعه فى الذهاب إلى نينوى . كل هذا وضـمـيـره لم يحـركـه . وحتى عـنـدما ركب سفينة إلى ترشيش ، وهاجت الأمـواج على الـسـفـيـنـة حتى كادت تنكسر ، وصرخ ركاب السفينة كل واحـد إلى إلهه ... على الرغم من كل هذا لم يتحرك ضمير يونان ، بل « نزل

إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوماً ثقيلاً » (يون ١ : ٥) مما اضطر رئيس النوتية إلى أن يوبخه قائلاً « مالك نائماً . قم أصرخ إلى إلهك ، عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك » . ولكن يونان لم يصرخ إلى إلهه .

متى استيقظ إذن وصرخ إلى إلهه ؟ حدث هذا حينما وقع فى الضيقة الكبرى ، وابتلعه الحوت ، فاكتنفته المياه ، وأحاط به الغمر ، واعيت فيه نفسه ... حينئذ « صلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت » وصرخ إلى الرب ، ونذر ، وقال للرب الخلاص . (يون ٢) .

هناك من لا توقظه الضيقات الصغيرة ، بل ضيقة مرّة توقظه .

كما حدث ليونان النبى ، الذى لم تكن الأمواج الشديدة كافية لايقاظه ، فاحتاج إلى حوت يبلعه لكى يفيق إلى نفسه . ولو إننا نلاحظ فى قصة يونان أن اليقظة التى سببها ابتلاع الحوت له ، لم تكن يقظة كاملة أو دائمة . فعلى الرغم من أنه أطاع الرب بعدها وذهب إلى نينوى ، إلاّ أن طبعه عاد فغلبه ، واحتاج إلى عمل إلهى آخر !

ومن أمثلة الضيقات التى توقظ الضمير أحياناً :

الأمراض والأحداث :

إن ساعة واحدة مؤلمة من مرض قاس مستعصى ، قد توقظ الخاطىء وترده إلى الله ، أكثر من ألف عظة ، و بخاصة المرض الذى يهدد بالموت ، أو المرض الذى يطول و يبدو أن الأطباء قد عجزوا عن علاجه ...

فى المرض يشعر الإنسان بضعفه ، فيلجأ إلى الله . وهنا يبدأ التفكير فى أن يصطلح مع الله . فيستيقظ من غفوته ، و يعود إلى الله مصلياً ، طالباً منه العون والشفاء .

وسواء فى ذلك : المرض الذى يصيب الشخص نفسه ، أو المرض الذى يصيب واحداً من أحبائه ...

ولعل هذه اليقظة من الأسباب التى لأجلها سمح الله بالأمراض ...

إن الخاطئة التى ادعت على القديس مقاريوس أنه أخطأ معها ، وأنها حملت منه : هذه لما تعسرت جداً فى الولادة ، واشتدت الأوجاع عليها حتى قاربت الوفاة ، عرفت أن هذه الضيقة إنما هى ضربة لها من الله ، فاستيقظت لنفسها ، واعترفت أنها ظلمت ذلك البار ، وأخبرت باسم الشاب الذى أخطأ إليها بالحقيقة .

وتوجد حوادث أخرى مماثلة قد سجلها التاريخ ...

ولعل الله قد سمح لهذه الخاطئة وأمثالها بآلام الجسد ، لكى تخلص الروح فى يوم الرب ، كما قال القديس بولس الرسول عن خاطىء كورنثوس (١ كو٥ : ٥) .

ولعل من القصص المعروفة فى التاريخ : المرض المستعصى الذى أصاب الشماس أوغريس ، وفشل كل أنواع العلاج فيه . وأخيراً قالت

له القديسة ميلانيا « إنى أرى يا إبنى ، أن هذا المرض ليس مثل باقى الأمراض . فاخبرنى ما هو سببه فى حياتك » . وهنا صحا أوغريس إلى نفسه ، وصارح القديسة بمشكلته الروحية . وقاده هذا المرض ليس فقط إلى اليقظة الروحية ، وإنما وصل به أيضاً إلى الرهبنة ، فصار من آبائها ومرشديها المعروفين . وتحول من أوغريس الذى تتعبه الخطيئة ، إلى القديس مار أوغريس St.Evagrius المرشد الروحى العظيم ...

وتدخل فى نطاق الأمراض أيضاً الأوبئة الفتاكة ، التى تهلك بالمئات والآلاف ، فيخشى كل فرد منها على حياته ، و يشعر أن دوره فى الموت ربما يأتى اليوم أو غداً ... وهكذا يصحو إلى نفسه و يتوب مستعداً لأبديته . ولعل البعض يذكر و باء الكوليرا الذى أصاب مصر سنة ١٩٤٨ ... حقاً ، كان فى أيامه سبب يقظة لكثيرين ...

وما نقوله عن الأمراض ، يمكن أن نقوله أيضاً عن بعض الأحداث الأخرى التى يتعرض لها الإنسان ، ويحتاج فيها إلى معونة من فوق ، كما قال الرب « ادعنى فى وقت الضيق ، أنقذك فتمجدنى » (مز ٥٠ : ١٥) .

ومن الضيقات التى توقظ الإنسان الخاطىء ، نوع آخر هو :

٥ ـ الفشل والمذلة والشماتة :

فقد يكون الفشل فى بعض الأحيان ضربة يسمح بها الله للخاطىء ، لكى يصحو إلى نفسه . وفى ذلك يقول الرب فى سفر التثنية ، ضمن حديثه

عن لعنات الخطية :

« لا تـنـجـح فى طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ، ولـيـس مخـلص ... بذاراً كثيرة تخرج إلى الحقل ، وقليلاً تجمع ، لأن الجراد يـأكـلـه ... يـكـون لـك ز يـتـون فى جميع تخومك ، و بز يت لا تدهن ، لأن ز يتونك ينتثر... ولا تأمن على حياتك . فى الصباح تقول ياليته المساء ، وفى المساء تقول ياليته الصباح » (تث٢٨ : ٢٩-٦٧) .

فـإن أحـس الإنـسـان أن فشله يرجع إلى عدم رضى الرب عليه ، وإلى تخلى النعمة عنه ، يرجع إلى نفسه .

يحدث ذلك عندما يجد الفشل يلاحقه ... كل باب يطرقه ، يجده مغلقاً فى وجـهـه ! وكـل مـشـروع يبدأ فيه ، ينتهى إلى الضياع ... فيدرك أن بركة الـرب قـد خـرجـت من حياته ، و يفيق لكى يصطلح مع الله ، إذ قيل عن الرجل البار إن « كل ما يعمله ينجح فيه » (مز١) .

حقاً إن الله بأنواع وطرق شتى ، يوقظ الخاطىء من غفلته .

ولعل من أمثلة الفشل والمذلة ، ما حدث لشمشون الجبار...

هذا القديس العظيم ، الذى حل عليه روح الرب وصنع به انتصارات عـجـيـبـة ، لما وجـد أن نـعـمـة الله قـد فـارقـتـه ، فـضاعت قوته وضاعت هـيـبـتـه ،وأذلـه أعـداؤه ، حـينـئذ ندم على ما فعله واستيقظ ، واصطلح مع الله ، فأعاد إليه قوته ...

وقد ضرب الرب لنا مثلاً آخر عن الفشل الذى هو نتيجة لتخلى الرب ، والذى يقود إلى اليقظة الروحية ، بمثال :

فشل جيش يشوع أمام قرية عاى الصغيرة ...

وكان ذلك الفشل المخجل ، بعد الإنتصار العظيم على أسوار أريحا ... حينئذ أحس يشوع أن هناك خطية وخيانة سببت الفشل . و بدأ يوقظ الشعب كله ، لكى يعزل الخبيث من وسطه ، لترجع بركة الرب إليه . وهكذا ! انكشف موضوع عخان بن كرمي . و بالتخلص من تلك الخطيئة ، رجعت بركة الرب (يش ٧) .

ما أسهل أن ترن فى الآذان ، خلال مرارة الفشل ، عبارة « فى وسطك حرام يا إسرائيل » (يش ٧ : ١٣) ، « فاعزلوا الخبيث من وسطكم » (١ كو ٥ : ١٣) . إصحوا لأنفسكم . إستيقظوا . لا تمسوا نجساً . إرجعوا إلىَّ ، فأرجع إليكم .

وهكذا تكون اليقظة الروحية علاجاً للفشل ، بالصلح مع الله .

على أن هناك ـ للأسف الشديد ـ من يقودهم الفشل إلى مزيد من الخطأ ...

هؤلاء بدلاً من أن يقودهم الفشل إلى اليقظة فالتوبة ، نراهم فى الفشل يتضجرون ، و يتذمرون ، و يفقدون أعصابهم ، وربما يجدفون على الله أيضاً ، و يصفونه بالقسوة والظلم !! والبعض منهم قد يغرقون أنفسهم فى ملاذ الجسد ، وفى الخمر والمخدرات ، لكى ينسوا ما هم فيه من ضيق ...

والبعض قد يلجأ إلى السحر والشعوذة والأرواح ، متوهمين أن سبب فشلهم هو « عمل » من الشيطان ... !

والله قد يصبر على هؤلاء جميعاً ، حتى تفشل كل طرقهم البشرية فى إنقاذهم من الفشل . وبدلاً من التجديف على الله ، يدخلون معه فى عتاب . وحينئذ تستيقظ قلوبهم و يرجعون إلى الله .

فإن كنت أيها الأخ تشكو من فشل يتابعك فى حياتك ،

إرجع سريعاً إلى نفسك ، وفتش داخلك جيداً ، وانزع الخبيث من وسط محلتك ، واصطلح مع الله ... وهكذا تعود إليك البركة ، فتحيا وتنجح ...

إن وجدت كل الأبواب مسدودة أمامك ، فارجع إلى الله الذى يفتح ولا أحد يغلق (رؤ٣ : ٧) .

إن الله يستخدم كل الطرق لإيقاظنا ، سواء كانت ضيقة أو ضربة ، أو مرضاً ، أو مذلة ، أو فشلاً ، لكى نصحو إلى أنفسنا ...

ولكن لماذا ننتظر ضربات الرب لكى نصحو ؟! لماذا لا نصحو من الآن ؟ ولا نلجىء الله إلى استخدام الشدة معنا !

إن الضيقات التى يسمح بها الله لإيقاظنا ، على نوعين :
إما ضيقة طبيعية ، أى هى نتيجة طبيعية لأخطائنا وخطايانا ...

أو هى ضيقة أرسلها الله من نعمته ، بنوع من التخلى المؤقت ...
وكلاهما للخير إن أحسنا استخدامهما ، لنستيقظ ونتوب ...

ومن الضيقات التى يسمح بها الرب أحياناً ، شماتة الأعداء ...

ونلاحظ أن الإنسان ربما يحتمل الضيقة أو الفشل ، ولكنه قد لا يحتمل فرح أعدائه فى ضيقته وشماتتهم بما أصابه من فشل أو سقوط . وفى ذلك قال أحد الشعراء :

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الأعداء

وإذ يتألم الإنسان من شماتة الأعداء ، يجد أنه تلقائياً يرجع إلى الله ، ليصطلح معه و يقول له « ... لا تشمت بى أعدائى » (مز٢٤) ، « الذين يحزنوننى يتهللون إن أنا سقطت » (مز١٢) . إن شماتة الأعداء قاسية ، ومن قسوتها أيقظت كثيرين ...

ولعل من الذين أيقظتهم شماتة العدو، القديس يعقوب المجاهد ...

هزأ هذا القديس بالشيطان ، وأراد الشيطان أن ينتقم لنفسه بإسقاط القديس . وهكذا دبر له حيلة ماكرة ، إستطاع بها أن يسقط القديس أخيراً فى خطية الزنا . ثم أسقطه فى الكذب لكى يغطى على هذا الزنا ، ثم جعله يختلف كذباً لعله يثبت ما ذكره من كذب . و بعد هذا السقوط الثلاثى ظهر الشيطان للقديس ، وهزأ به فى سقوطه ، ومضى ضاحكاً

فرحاً .

وهذه الشماتة من الشيطان جعلت القديس يعقوب يستيقظ من سقطته ، و يصحو لنفسه ، و يقدم توبة عجيبة ، حبس نفسه بها فى مقبرة لمدة ١٧ سنة فى بكاء ودموع ، وهو يقول لنفسه إنه لا يستحق أن يرى الناس ولا أن يرى النور... إلى أن تحنن الله عليه أخيراً ، وأظهر له بمعجزة أنه قد قبل توبته .

إن الله يعين الخاطىء على اليقظة الروحية إما بعوامل داخلية ، داخل قلبه ، أو بعوامل خارجية لعل من بينها تدخل القديسين .

٦ ـ تدخل القديسين :

قد يتدخل القديسون الأحياء بصلواتهم لإنقاذ نفس خاطئة ، مثلما اجتمع قديسو برية شيهيت ، ورفعوا صلوات من أجل القديسة بائيسة فى سقطتها .

وقد يتدخل قديسو الكنيسة المنتصرة فى السماء ، فيشفعون فى إحدى النفوس لتستيقظ كما فعلت القديسة العذراء لما تشفعت فى مريم القبطية فأيقظتها ...

وقد يتدخل القديسون الأحياء تدخلاً عملياً لإيقاظ نفس وهدايتها :

أ ـ مثلما فعل القديس بيصاريون لإنقاذ القديسة تاييس :

ذهب إليها فى مكان عارها ، وحدثها عن الله والدينونة ، فتخشعت من كلامه وارتعدت ، وهويقول لها : « إن كانت هناك دينونة ، فكيف تتسببين فى هلاك هذا العدد الكبير من النفوس ، لأنه من أجل هذه النفوس الكثيرة سيكون عقابك أكثر من مجرد عقابك على سقوطك » .

ولفزع تاييس من جدية كلام القديس وتأثرها به ، سقطت على الأرض وانفجرت باكية . وأمكن أن يقودها القديس إلى التوبة . والخروج من أماكن الإثم ، حيث قضت حياتها كقديسة .

ب ـ وقصتها تشبه قصة خاطئة أخرى أنقذها القديس سرابيون الكبير :

ذهب إليها القديس لكى يختطف نفسها من النار . ودخل مكان عارها . وظل يتلو مزاميره ، وفى نهاية كل مزمور ، كان يصلى قائلاً « إرحم يارب هذه المسكينة وردها إلى التوبة فتخلص » . وكانت هذه الخاطئة تسمع صلواته ، وهى واقفة إلى جواره ترتعد خوفاً وخجلاً . وأخيراً خرت على قدميه طالبة إليه أن يخلصها . فأرشدها إلى طريق الله ، وأخرجها من بيت الخطية إلى بيت للعذارى حيث عاشت حياة توبة ...

ج ـ ومن هذا النوع أيضاً قصة القديس يوحنا القصير ، وسعيه لخلاص نفس القديسة بائيسة :

وهذه كانت قد بدأت حياتها بداية طيبة . كانت غنية جداً ، وكريمة

جداً ، وطاهرة جداً . وكانت تنفق أموالها على الغرباء والمساكين ، وعلى الأديرة والكنائس . ومع ذلك استطاع الشيطان أن يضلها ، فانحرفت إلى الفساد وعاشت فى أعماقه .

وسمع بأمرها الشيوخ القديسون فى شيهيت ، وأقاموا الصلوات لأجلها . ولم يكتفوا بالصلاة وحدها ، بل أرسلوا إليها القديس يوحنا القصير لكى يختطف نفسها من الجحيم . فذهب إليها هذا القديس العظيم فى مكان عارها ، وهويرتل قول المزمور « إن سرت فى وادى ظل الموت ، فلا أخاف شراً لأنك أنت معى » .

نظر إليها القديس وقال لها « لماذا استهنت بالسيد المسيح بهذا المقدار؟ ... كيف أضلك الشيطان حتى بعتِ المسيح بهذا الثمن الرخيص ؟! » ، وأحنى القديس رأسه إلى الأرض وبكى بكاءاً مراً .

وتأثرت بائيسة من توبيخه لها ، وتأثرت من بكائه ، واستيقظ ضميرها ... وقالت للقديس « هل لى توبة ؟ » . فأجابها « نعم ، ولكن ليس فى هذا المكان » ... إقتنعت ، وسلمت نفسها لهذا الذى أتى من أجل خلاص نفسها ...

وخرجت التائبة بائيسة مع القديس إلى البرية . ولما أدركهما الليل ، تركها تنام فى ناحية ، وانفرد فى مكان آخر يصلى . ورأى فى رؤيا نوراً عظيماً يمتد بين السماء والأرض ، والملائكة صاعدين بروح بائيسة ، فذهب إلى حيث كانت فوجدها قد ماتت ... وسمع صوتاً يقول « إن توبتها قد قبلت فى ساعتها التى تابت فيها ، أكثر من الذين قضوا سنين كثيرة فى

التوبة ، ولكن ليست بنفس الحرارة ...

ورجع القديس يوحنا القصير إلى شيهيت ، وأخبر الآباء القديسين بتوبة بائيسة ونياحتها وقبول الله لها . وكتبت قصتها في سنكسار (٢ مسرى) .

وهكذا كان تدخل القديسين له عمقه في إيقاظ الخطاة .

وأنت يا أخي ، لعل القديسين لهم دور في يقظة نفسك ...

ربما في الأوقات التي تصحو فيها نفسك بعد غفوة معينة ، يكون سبب ذلك صلوات قديسين قد رفعت من أجلك ، فأرسل لك الله نعمة خاصة توقظك .

وهكذا لا يجوز لنا أن نيأس من خلاص الخطاة ، لأن قديسين كثيرين يعملون لأجلهم و يذكرونهم أمام الله في السماء .

أما على الأرض ، فتعلمنا هذه القصص أهمية الإفتقاد ...

كم من نفس غافلة ، تحتاج إلى افتقاد منك ، من نوع زيارة القديس يوحنا القصير لبائيسة ، بنفس الجدية والعمق ، و بنفس الروح والتأثير...

وكما تفعل زيارة القديسين في إيقاظ الخطاة ، هكذا أيضاً تفعل الذكريات المقدسة في زيارتها للعقل والقلب وتأثيرها عليها ...

٧ ـ الذكريات المقدسة القديمة :

هناك خاطئة أخرى ، لها قصة شبيهة ، وقد أيقظتها الذكريات المقدسة القديمة ، التي أثارها فيها إفتقاد قديس لها ، وهى :

مريم الخاطئة التي تابت بافتقاد عمها القديس ابراهيم المتوحد لها .

كانت قد بدأت بحياة نسكية طيبة فى مغارة مدى عشرين عاماً تحت رعاية عمها . ثم أغواها الشيطان ، وسقطت وهربت ، واستمرت فى السقوط ، كأنها نسيت حياتها القديمة البارة ... ربما ليأسها من الرجوع إلى الله .

وبحث القديس الأنبا ابراهيم عنها . وأخيراً عرف مكانها ، وذهب إليها متنكراً . وجلس إليها ... ولما لمحت المسوح التي كان يلبسها تحت ثياب تنكره ، واشتمت منه رائحة عرق النسك ، ثارت فيها الذكريات القديمة ، وبدأت تستيقظ . بينما كان القديس يصلى من أجلها . وتذكرت مريم أيام عفافها ونسكها ، وانفجرت باكية ، وهى تقول « ويل لى ، إننى أتعس كل بنى البشر » .

واستغل القديس تأثرها ، فقال لها « أيتها القديسة إبنة المسيح ، هل أنت مقتنعة ومسرورة بما أنت فيه » ... وحدثها القديس عن ذكريات نسكها القديم .

ومرت لحظات وهى جامدة أمامه من الخوف والخزى ، فأخذ القديس

يعزيها و يقيمها من هوة اليأس . ثم أخذها وأخرجها من ذلك الفندق وقادها إلى حياة التوبة مرة أخرى ، ورجعت إلى مغارتها ، تبكى خطاياها ، ولكن فى رجاء التوبة ... وفى ساعة إنطلاقها من العالم ، بعد سنوات فى التوبة ، كان وجهها يضيء كالمصباح ...

إن الذكريات القديمة المقدسة قد هزت نفس القديسة مريم وأيقظتها ، ولم يكن عمها الأنبا ابراهيم محتاجاً إلى مجهود كبير معها لإيقاظها .

وكم من أناس توقظهم ذكرياتهم القديمة المقدسة ...

عندما يتذكر الإنسان محبته الأولى ، وعمق حياته الروحية فى ماضيه ... عندما يتذكر أيامه الحلوة مع الله ، والحرارة التى كانت له فى صلواته وفى خدمته ، وعمل الله معه ... ما أسهل حينئذ أن يتحرك قلبه فيستيقظ ، و يبكى على ما هو فيه ...

ربما تقع فى يده مذكرة تأملات قديمة له ... وإذ يعاود قراءتها تهتز نفسه من الداخل ، فيصحو...

قد تصادفه صورة له مع أشخاص روحيين كانوا زملاءه فى طريق الرب ، فتذكره هذه الصورة بأيام سعيدة مع الله ، يشتاق قلبه إليها فيصحو...

وربما يزوره صديق قديم ، يحكى له ذكريات الخدمة ، أو ذكريات رحلاته معه إلى الأديرة ومواضع القديسين ، فتتأثر نفسه و يستيقظ...

ياليتنا كلما نفتر ، نعود فنتذكر ماضينا الحلو فنصحو...

وليتنا أيضاً نضع أمامنا قنوات ثابتة بيننا و بين تلك الذكر يات القديمة ، نعيدها إلى أذهاننا بين الحين والآخر، لتمتص عصارتها وتسرى فى عروقنا فتنعشها ...

من الأسباب التى تساعد أيضاً على اليقظة الروحية :

٨ ـ تأثير وسائط النعمة :

إن نعمة الله تعمل فى قلب الإنسان لتوقظه ، إما بنخس مباشر للضمير، وإما عن طريق وسائط روحية تؤثر فيه ، مثل قراءة روحية تهز نفسه هزاً ، أو عظة عميقة تستطيع أن تدخل إلى أعماقه فيستيقظ ، أو قداس روحى يسمعه فيحمل نفسه إلى أجواء أخرى غير أجواء الخطية ، أو اجتماع روحى ينقله من جو الخطيئة الذى يعيش فيه إلى جو مغاير، فيصحو...

وما أكثر القصص التى فيها استيقظ خطاة بوسائط النعمة ...

فهكذا استيقظ أوغسطينوس ، عندما قرأ حياة القديس العظيم الأنبا أنطونيوس ، وشعر بلذة وعمق الحياة النسكية التى عاشها ذلك القديس العجيب ... وتاب أوغسطينوس ، وتحول إلى نبع من الروحيات إرتوى منه كثيرون ...

وبيلاجية الممثلة والراقصة المشهورة فى أنطاكية ، كيف استيقظت ؟

لقد ذهبت إلى الكاتدرائية الكبرى فى أنطاكية ، ربما للفرجة إذ كان عدد كبير من الأساقفة فى زيارة لها . وتصادف أن القديس نونيوس كان يعظ من كل قلبه عن الحياة الأخرى وما فيها من بركات للأبرار ودينونة للخطاة . وكان يتكلم بالروح ، بتأثير عميق فى النفوس ، بكلام بسيط ولكنه قوى نفاذ . وإذ بخوف الله يدخل فى قوة إلى قلب بيلاجية ، فتصحو لنفسها ، وإذا بدموعها تنهمر على الرغم منها ... وتصر فى داخلها على مقابلة القديس نونيوس بعد انصرافه من الكاتدرائية ، وتبدأ قصة توبة ، تتحول بها إلى قديسة تصنع عجائب ...

إن نفس التأثير الروحى أيقظ أيضاً أفدوكيا الخاطئة ...

عاشت فى الخطية زمناً ، قادها فيه شيطان اليأس إلى الإستسلام وخدر ضميرها . ولكن كيف استيقظت ؟ لذلك قصة :

كانت فى بعلبك . وحدث أن راهباً قديساً يدعى جرمانوس زار صديقاً له كان يقيم فى بيت مجاور لهذه الخاطئة . وفى منتصف الليل كان الراهب يصلى صلوات عميقة ، وكان يقرأ فصولاً مؤثرة من الكتاب المقدس ومن الكتب الروحية ، وكان صوته مرتفعاً ربما ليطرد النوم عنه . وكانت هذه الخاطئة تتجسس بأذنيها أصوات جيرانها . فسمعت هذه الصلوات وهذه القراءات الروحية ، وتأثرت بها جداً ، وهزت مشاعرها ، فأدركها الحزن على نفسها ، واستيقظت روحها داخلها .

وفى الصباح ذهبت وقابلت القديس جرمانوس ، الذى وعظها كثيراً وتأثرت جداً بوعظه ، وبدأت معها قصة توبة ... فتعمدت ، والتحقت

ببيت للعذارى ، وارتفعت فى حياة الروح والنسك ، حتى صارت أماً لهذا البيت ، وانتهى بها الأمر إلى أنها نالت إكليل الشهادة ، وتعيد لها الكنيسة فى اليوم الخامس من برمهات (باسم أودكسيا) .

حقاً إنه خطر على الإنسان ، أن يبقى فى جو واحد فقط هو جو الخطية ...

بحيث يؤثر عليه هذا الجو تأثيراً كاملاً ، و يسيطر عليه ، ولا يعطيه فرصة أن يتنفس هواءً جديداً ... أما وسائط النعمة ، فإنها تقدم تأثيراً جديداً يقيم توازناً داخل قلب الإنسان ، و يشعره بخطورة موقفه ، فيستيقظ لنفسه ... كما أنها تغرس فيه مشاعر من نوع آخر ، تقربه إلى الله وحياة البر ، و بخاصة إن كان الخاطىء قد أتعبته الخطية ، ولكنه بقى فيها إذ لم يجد غيرها ، أو لم يجد من يقوده خارجها ...

وهكذا تؤدى الوسائط الروحية عملها فى إيقاظ النفس الخاطئة ...

هناك سبب آخر نقدمه فى موضوع اليقظة الروحية وهو :

٩ ـ التأثر بموت الآخرين :

الموت يهز النفس هزاً ، و يقلب جميع التأثيرات المادية فى قلب الإنسان ، إن أمكن أن يستخدمه حسناً لخلاص نفسه .

ربما إنسان خاطىء يذهب إلى الكنيسة لمجرد تقديم العزاء لأحد أصدقائه فى موت قريب له . وإذا بالموت يحدث تأثيره ... فقد يتأثر من

منظر الميت فى صندوقه بلا حراك ، أو قد يتأثر بلحن حزايني مثل آجيوس أو آرى باميقثى ، أو يتأثر ببكاء الناس ... أو بالعظة ... ويخرج من الكنيسة وإذا هو شخص آخر، قد عزم على التوبة بكل قلبه ...

ولعل فى قصة القديس الأنبا بولا مثالاً لتأثير الموت ...

لم يكن يشغله سوى موضوع الميراث والمال . وكان ذاهباً لكى يقاضى قريبه الذى اغتصب جزءاً من ميراثه ... وفى الطريق رأى جنازاً ونعش ميت ، وسمع ما يقوله المشيعون ... وترك الموت تأثيره فى نفس بولا ، فزهد العالم ، وزهد الميراث والمال ، ومضى إلى البرية ، وتحول إلى القديس العظيم الأنبا بولا أول السواح .

ليتنا إذن نستفيد من مناظر الموت ، ومن الحديث والقراءة عنه ... إنه يعطى يقظة للأصحاء الذين يرونه فى آخرين ، و يعطى يقظة لمن ينتظرونه لأنفسهم ...

هناك سبب آخر لليقظة الروحية وهو :

١٠ ـ السقطة الكبيرة غير المحتملة :

مع أن الخطية هى الخطية ، أياً كانت درجتها ونوعيتها ، إلا أن هناك خطايا يستطيع الضمير العادى أو الضمير الواسع أن يحتملها ، وأن يمررها بهدوء ، ويجوز مقابلها دون أن يهتز...

وهناك خطايا تتحول إلى عادة ، يمارسها الإنسان كأنها جزء من طبعه

أو طبيعته ، ولا يشعر أنها تمثل شيئاً شاذاً فى حياته يحتاج إلى أن يقف عنده ليغيره ....

بل هناك خطايا يفتخر بها الخطاة ، و يتحدثون عنها فى زهو !

فى كل ذلك وأمثاله ، لا يستيقظ الضمير .

إلى أن يقع الإنسان فى خطيئة بشعة ، أو خطيئة أكبر من احتمال ضميره ، أو خطيئة تسبب له فضيحة وعاراً ، أو لها نتائج سيئة مخيفة ...

وهنا فقط يستيقظ ... !

تماماً كالذى لا توقظه الضيقات البسيطة التى يفتقده بها الرب . و ينتظر إلى أن تقع به الضيقة الكبيرة فيستيقظ .

ولكن طوبى للإنسان الذى لا ينتظر حتى يصل إلى هذا الحد الخطير ، بل له الضمير الحساس الذى يؤلمه من أولى خطوات الخطية ... الضمير الحريص المدقق الذى يقول للخطية من بدء طريقها :

« يابنت بابل الشقية ... طوبى لمن يمسك أطفالك ، و يدفنهم عند الصخرة » (مز١٣٦) . « والصخرة كانت المسيح » (١ كو١٠ : ٤) . وأطفال الخطية هم براعمها الصغيرة ...

•

إن الإنسان الذى لا تأتيه اليقظة من داخله ، كثيراً ما توقظه أسباب خارجية كغالبية الأسباب التى ذكرناها .

فلا يفيق مثل هذا الإنسان إلا بسبب يأتيه من الخارج .

مثل لوط الذى لم ينتبه إلى نفسه ويخرج من سادوم ، وإنما خرج بسبب ملاكين دفعاه دفعاً إلى الخارج ليترك المدينة الهالكة .

أما أنت يا أخى ، فلا تنتظر حتى يرسل الله ملاكين يخرجانك من سادوم ، وإنما إستيقظ أنت من ذاتك . قم من الأموات ، فيضىء لك المسيح .

أترك هذا الكتاب الآن واجلس إلى نفسك ،
وقل لا بد أن أصطلح مع الله ... الآن ،
وارفع صلاة أن يعينك الرب ، و يعطيك قوة ترجعك إليه ...

ألقيت هذه المحاضرة بالكاتدرائية الكبرى مساء يوم الجمعة ١٩٧٠/١٠/٢٣ .

[٣]
مشاعر تصاحب اليقظة الروحية

- الشعور بالخجل والخزى .
- دموع الحزن والندم .
- حرب اليأس ، وحسد الشياطين
- حرارة روحية تصحب اليقظة .
- تعويض ما فات .
- مشاعر أخرى ...

اليقظة الروحية ، إن كانت يقظة حقيقية ، هناك علامات تدل عليها وتميزها . ولعل من أولى هذه العلامات :

١ ـ الشعور بالخجل والخزى :

عندما يصحو الخاطيء إلى نفسه ، يدرك بشاعة الخطية التى كان يعيش فيها ، فيشعر بخزى من خطاياه ، ويخجل من ماضيه .

وكلما تمر أمامه صور خطاياه تزعجه وتخزيه ... كيف أنه فقد صورته الإلهية ، وفقد نقاوته ... ! كيف أنه دنس نفسه أو فكره ، أو حواسه أو جسده ... ! كيف أنه استهان بوصايا الله إلى هذا الحد ... ! كيف ... كيف ... ؟!

إنه يخجل أولاً من الله ذاته ...

يخجل من قدسية الله وصلاحه ... إن كانت الخطية بشعة أمام الإنسان ، فكم تكون بشاعتها أمام الله القدوس ، غير المحدود فى قداسته ...

ويخجل من طول أناة الله عليه ، وكيف أن الله الحنون لم يأخذه فى سقوطه ، إنما صبر عليه وهو يتعدى وصاياه ، وأعطاه فرصة لكى يستيقظ و يتوب ...

يخجل من محبة الله التى قابلها بالجحود والإستهانة ،

وفى صلاته يقول لهذا الإله المحب « أنا يارب مكسوف منك ... خجلان ... لا أعرف كيف أرفع وجهى إليك ... وكيف أتجرأ وأعود فأخاطبك ، كأن شيئاً لم يحدث ... صدقنى يارب إننى خجلان من محبتك

التى تسمح الآن بأن تسمع لى ، وتقبلنى مصلياً ... محبتك التى ترضى بأن تصطلح معى ، بهذه السهولة ... !

هذا الخجل المقدس هو صفة لازمة لكل تائب ، يعرف تماماً أنه وضع نجاساته على كتف المسيح ليحملها عنه ، ويخزى من محبة الفادى وهو يقبل هذا ...

ولعل من أمثلة الشعور بالخجل ، قصة العشار فى الهيكل ...

يقول عنه السيد إنه من خجله ، لما دخل الهيكل « وقف من بعيد » وهو « لا يشاء أن يرفع عينيه إلى السماء » (لو١٨ : ١٣) . وإنما فى مذلة وفى شعور بالخزى ، قرع صدره قائلاً : إرحمنى يارب أنا الخاطىء .

نفس الوضع يشبه مشاعر الإبن الضال فى يقظته ...

لما استيقظ هذا الإبن من غفلته ، أو لما « رجع إلى نفسه » ، شعر فى خزيه أنه لم يصل إلى مستوى أجراء أبيه ، وأنه لا يستحق أن يكون له إبناً . وكل ما يريده من أبيه هو هذه الطلبة : « إجعلنى كأحد أجرائك » (لو١٥ : ١٩) .

لما استيقظت مريم الخاطئة ، قالت لعمها الأنبا ابراهيم :

« لا أستطيع يا أبى أن أنظر إلى وجهك من فرط خزيى وعارى . بل كيف أرفع عينى إلى السماء نحو الله ، وأنا ملوثة بكل الأوحال الدنسة ؟! » ...

حقاً إن الإنسان الذى استيقظت روحه يقول مع المزمور:

« اليوم كله خجلى أمامى ، وخزى وجهى قد غطانى »

(مز٤٤ : ١٥)

وإذا وقف أمام الله ، لا يجد أمامه سوى عبارة « أنت عرفت عارى وخزيى وخجلى » (مز٦٩ : ١٩) . إنه إنسان خجلان من الله . لا يجرؤ أن يرفع وجهه إليه ، ولا يرى نفسه مستحقاً الدخول إلى بيت الله . بل يقول له « أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك » (مز٥ : ٧) . إنها رحمة منك ، تسمح لى بها أن أدخل إلى بيتك ، وليس استحقاقاً لى ...

أنا يارب أشعر بخجل أمامك ... كيف حدث أننى ضعفت إلى ذلك الحد ؟! كيف أننى لم أقاوم ، بل استسلمت وسقطت ؟! كيف لم أضعك أمامى وقتذاك ... كيف استهنت بوصاياك ...

إذا استيقظ الخاطىء ، يشعر بخجل فى الداخل أمام نفسه . وبخجل خارجها أمام الله ، وأمام ملائكته وقديسيه ...

دائماً الخطية تسبب الخجل والخزى ، أو انكشاف الخطية أمام الإنسان يسبب هذا ... سواء أكانت خطيته هو ، أو خطية من ينتسبون إليه و ينتسب إليهم ...

وهكذا نجد أن الخزى من الخطية ، يدخل فى مشاعر الأنبياء ...

فأرميا النبي ـ وهو يوقظ الشعب الغافل فى خطيته ـ نسمعه يقول « ... نضطجع فى خزينا ، و يغطينا خجلنا ، لأننا إلى الرب إلهنا أخطأنا ، نحن

وآباؤنا ، من صبانا إلى هذا اليوم ... » (أر٣ : ٢٥) .

وعزرا الكاهن ، لما اكتشف خطايا الشعب ، مزق ثيابه حزناً ... وعند تقدمة المساء ، قام من تذلله ، و بثيابه الممزقة جثا على ركبتيه ، و بسط يديه إلى الرب قائلاً :

إني أخجل وأخزى من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك (عزرا ٩ : ٦) .

وشرح عزرا سبب خجله وخزيه فقال « لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا ، وآثامنا تعاظمت إلى السماء ... قد جازيتنا يا إلهنا بأقل من آثامنا » . وختم هذا الكاهن القديس صلاته بقوله « أيها الرب ... أنت بار ، لأننا بقينا ناجين إلى هذا اليوم . ها نحن أمامك فى آثامنا ، لأنه ليس لنا أن نقف أمامك » (عز٩ : ٦ ، ١٣ ، ١٥) .

وبنفس صلاة أرميا وعزرا ، كانت أيضاً صلاة دانيال ...

قال وهو صائم فى المسوح والرماد « أيها الرب الإله العظيم المهوب ... أخطأنا وأثمنا ، وعملنا الشر ، وتمردنا وحدنا عن وصاياك ... يا سيد ، لنا خزى الوجوه ، لملوكنا لرؤسائنا ولآبائنا ، لأننا أخطأنا إليك ... » (دا ٩ : ٥ ، ٨) .

هكذا وقف الأنبياء القديسون فى خزى أمام الله . فهل يليق بنا فى توبتنا أن نقف بجرأة أمام الله ، نطالب بحقوق ؟!

إن الكتاب يعلمنا هذا الإنسحاق الذى نشعر فيه بالخزى والخجل ...

إن داود النبي ما أن انكشفت أمامه خطيته ، حتى شعر بالخزى وقال « لقد أخطأت جداً فى ما فعلت ... إنحمقت جداً » (٢صم ٢٤ : ١٠) .
« وضر به قلبه » ...

الخجل لا بد أن يكون ، قبل الخطية أو بعدها ...

مبارك هو الشخص الذى يشعر بالخجل من فعل خطيته ، قبل أن يقع فيها ، ويمنعه الخجل من ارتكابها ، مثل يوسف الصديق الذى قال « كيف أخطىء وأفعل هذا الشر العظيم أمام الله » ... وهكذا لم يخطىء ...

فإن لم يخجل الإنسان هذا الخجل الواق ، وسقط فى الخطية ، فبالأحرى جداً ينبغى أن يشعر بالخجل لسقوطه . يخجل من ضعفه ومن هزيمته ، ومن دنسه ، و بعده عن الله ... واستهانته بمحبة الله وطول أناته عليه ...

ويخجل الإنسان من وعوده لله فى أن يحيا حياة بر ...

تلك الوعود السابقة ، الحافلة بتعهدات كثيرة ، والتى لم يكن أميناً فيها ولا صادقاً ... ولسان حاله يقول :

كم وعدت الله وعداً حانثاً   ليتنى من خوف ضعفى لم أعد

و يزداد خجله من تعهداته لله ، كلما كانت تلك التعهدات محاطة بقدسية معينة ، كأن يكون قد تعهد أمام الله ، وهو واقف أمام المذبح ، أو وهو واضع يده على الإنجيل ، أو وهو أمام رفات أحد القديسين ...

كل ذلك يجعله يذوب خجلاً أمام الله وأمام نفسه .

وكما يخجل الإنسان من نفسه ومن ضعفه وعدم أمانته ،

يخجل كذلك من الملائكة وأرواح القديسين الذين رأوه يخطىء ...

قد لا يخجل الخاطىء من خاطىء مثله ، يراه فى خطيئته أو يشترك معه فيها . ولكنه يخجل جداً إن عرف بهذه الخطية أحد الأبرار الأنقياء ، أو إن رآه أو سمعه ... فكم بالأكثر يكون خجله من الملائكة الذين حوله ، وأرواح القديسين وهى تراه ! وكذلك كم يكون خجله من أرواح أصدقائه وأقربائه الذين انتقلوا ...

أين يخفى وجهه من كل هؤلاء ، و بخاصة الذين كانوا يحسنون الظن به ، والذين كانوا يثقون به و ببره وتقواه ، ويمتدحونه ، و يطلبون صلواته لأجلهم ... ثم يرون نفسه على حقيقتها فى أخطائها ... !

بل هو يخجل أيضاً من أرواح أعدائه ومعارضيه ، ممن كان هو ينتقد أعمالهم و يبدو أفضل منهم . ماذا تراهم يقولون عنه الآن ؟!

والخاطىء حين يستيقظ و يتوب ، يقول فى شعوره بالخزى :

أين أخفى وجهى ، يوم تفتح الأسفار، وتكشف الأعمال والأفكار؟!

إن كان خجلى هنا على الأرض يؤلمنى ، أمام عدد محدود ، فكم وكم يكون فى اليوم الأخير، أمام الخليقة كلها ... ماذا أفعل بهذا الماضى

وسقطاته ؟ إن كنت لا أحتمل التعيير على الأرض ، فكم يكون العار فى اليوم الأخير .

و يظل هذا الخزى يتابعه و يؤلمه ، إلى أن يفيض الله عليه بعزائه ، ويمحو ماضيه ... وفى اعترافه بخطئه يستريح

والخزى من خطاياه ، ليس بسبب عقوبتها ، بل بسبب بشاعتها ...

إن العقوبة تسبب خوفاً لا خجلاً . و يزول هذا الخوف حينما يدرك الإنسان أن التوبة الصادقة تنجيه من العقوبة ... ولكنه يخزى بسبب احتقاره لنفسه فى سقوطها . وقد يحتمل الإنسان احتقار الناس له ...

ولكن أقسى ما يؤلم ، هو أن يحتقر الإنسان ذاته ...

وهكذا يشعر بالخزى ، ليس فقط أمام الله والناس ، وليس فقط أمام الملائكة وأرواح القديسين ، وإنما أيضاً يشعر بالخزى أمام نفسه ، وهو وحده لا أحد معه .

إن ذلك يعصره عصراً ، و يسحقه سحقاً . وكل ذلك نافع له روحياً ... نافع له فى اكتساب فضيلة الإتضاع والإنسحاق ، وفى عدم الإعتماد على نفسه فى المستقبل بل يعتمد على الله وحده . ونافع له فى الإحتراس من الخطية ومن أسبابها ...

لذلك إن لم يخجل الإنسان من خطاياه ، تخجله الكنيسة ...

وقد حدث هذا بالنسبة إلى خاطىء كورنثوس الذى حكم عليه بولس الرسول (١ كو٥) ، وعزلته الكنيسة من شركتها لكى يخجل ويحس

ببشاعة خطيته . وقد كان ... حتى كاد يبتلع من الحزن المفرط ، وحينئذ عفت عنه الكنيسة (٢ كو ٢ : ٧، ٨) .

ولعل فى قول الرسول « لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا » (١ كو ٥ : ١١) ، وقوله « إعزلوا الخبيث من بينك » (١ كو٥ : ١٣) ، ما يحمل معنى روحياً ، هو أن يحس هؤلاء ببشاعة سلوكهم ، و يستيقظوا ، و يشعروا بالخجل والخزى ... وكل هذا يقودهم إلى التربة ، و بالتالى إلى المغفرة ، وإلى المصالحة مع الله ...

ولعل الإعتراف على الكاهن ، وسيلة تساعد على الخجل المقدس .

الإعتراف له أسباب عقيدية وفوائد كثيرة . ولعل من ضمن فوائده أن يشعر المعترف بالخجل وهو يعترف . وذلك لأن البعض ـ لقلة حساسيتهم الروحية ـ لا يخجلون أمام الله ... !

ولكنهم إذ يخجلون أمام الكاهن ، يدركون كم الخطية بشعة ، فيتو بون عنها و يتركوها ...

قلنا إن من يستيقظ يقظة روحية حقيقية ، لا بد أن يشعر بالخزى والخجل بسبب خطاياه السابقة . وهذا الخزى نافع له ...

غير أن البعض للأسف يهربون من الخجل والخزى ...
وبالتالى نقول إنهم لم يستيقظوا بعد يقظة حقيقية ...

هذا الذى يخطىء ، فيهرب من الإعتراف ، ومن الكهنة والمرشدين

الروحيين . أو يهرب من المجال الروحى كله ، حتى لا يتبكت قدامه .

أو هناك من يهرب من خجل خطيئته ، بدفاع مختلق يحاول به أن يبرر نفسه ، فيضيف إلى خطيته خطايا جديدة بهذا الدفاع ...

أو إنسان يهرب من خزيه أمام نفسه بسبب خطيئته ، بأن يغرق نفسه فى المشغوليات أو فى المتع ، حتى لا يخلو إلى نفسه فتحاسبه فيخجل ... !

يا إخوتى ، إستفيدوا من الخجل ، فهو صديق مخلص ، صادق وصريح ، يهدف إلى خلاص أنفسكم ...

إن الشخص الذى يبعد عن الخجل أى الحياء ، لا بد أن تقوده مشاعره إلى الإستباحة . والذى لا يدركه الخزى من خطاياه ، هو إنسان لم تستيقظ روحه بعد ...

إن كان الشعور بالخزى هو من علامات اليقظة الروحية ، فمن علاماتها أيضاً الدموع ، دموع الندم والحزن .

٢ ـ دموع الندم والحزن :

بطرس الرسول ما كان يشعر بفداحة إنكاره للمسيح ، بدليل أنه كرر هذا الإنكار ثلاث مرات وهو فى دوامة الخوف . فلما أيقظه صياح الديك ، وتنبه إلى نفسه ، وشعر بعمق خطيته ، يقول الإنجيل إنه « خرج إلى خارج ، وبكى بكاءاً مراً » (متى ٢٦ : ٧٥) .

هذا البكاء هو تعبير القلب عما يشعر به من مرارة وندم بسبب خطيته ... وكما بكى بطرس ، بكى داود ...

كان داود فى دوامة الخطية ، يتنقل فيها من مجال إلى مجال آخر ، حتى نبهه ناثان وأيقظه ... وفى يقظته تحول حزن قلبه إلى دموع متصلة فقال « فى كل ليلة أعوم سريرى ، و بدموعى أبل فراشى » (مز٦) .

لم يبك داود خوفاً من فقد أبديته ، فقد قال له ناثان النبى « الرب نقل عنك خطيئتك ... لا تموت » (٢صم ١٢ : ١٣) . ولكنه بكى ندماً وحزناً ، لأنه دنس نفسه وأغضب الرب ...

إن الدموع عنصر ثابت فى كل قصص التوبة ...

إنها تصاحب كل يقظة روحية ... يبكى بها الإنسان على أيامه الضائعة ، وعلى نقاوته المفقودة ، ندماً وحزناً ، إذ يشعر إلى أية هوة قد انحدر...

يبكى بينه و بين نفسه أمام الله ، و يبكى أمام المرشد الذى أيقظ نفسه ، و يبكى أمام المذبح وصور القديسين ، و يبكى كلما تذكّر...

إن القلب الذى لم يختبر البكاء ، هو قلب قاسٍ ...

كلما تزداد حساسية ورقة القلب ، تزداد دموع التوبة والندم ...

ولكن قد تجف الدموع ، إن نسى الإنسان خطاياه أو انشغل عنها ، أو لم تعد خطيرة فى تقديره ... ولهذا نسمع فى بستان الرهبان نصيحة يكررها الآباء كثيراً ، وهى « إذهب إلى قلايتك ، وابكِ على خطاياك » ...

القديس يعقوب المجاهد ، بكى بكاءً عجيباً ، لما صحا لنفسه ...

قيل إنه صار يبكى ، والدموع تنزل من عينيه فى لون الدم ، غزيرة كالمطر، حتى أن العشب نبت عند قدميه من الدموع ... وبقى هكذا سبعة عشر عاماً ... فى مقبرة أغلق على نفسه فيها بدون عزاء ، حتى افتقده الرب أخيراً ، وأشعره بقبول توبته ، بمعجزة أجراها على يديه ...

ودموع الحزن والندم تصحبها أمور أخرى تناسبها ...

من أمثلة ذلك لوم النفس وتبكيتها فى شدة ، كما حدث للقديس موسى السائح ، الذى ظل يقول « الويل لكِ يا نفسى حينما فعلتِ كذا وكذا ... الويل لكِ يا نفسى ... » . وقد يصحب ذلك سجود الخشوع والتوبة ، أو قرع الصدر، أو صرير الأسنان ... وما أكثر ما ورد من قصص فى كتاب الدرجى عن ممارسات منسحقة فى (دير التوابين) ...

٣ ـ حرب اليأس وحسد الشياطين :

قد ينتهز الشيطان حالة الندم المرير الذى يملأ قلب التائب مع لومه الشديد لنفسه ، لكى يوقعه فى اليأس ، كأن خطاياه بلا غفران ... ! وكما قال المرتل « كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه » (مز٣) .

وقديماً أوقع الشيطان يهوذا فى اليأس فشنق نفسه ...

والمرشد الروحى الحكيم ، إذ وجد أن الكآبة قد عصفت بالخاطىء حتى تكاد تدفعه إلى اليأس ، يبدأ بإدخال الرجاء إلى قلبه ، بالحديث عن

رحمة الله غير المحدودة وغفرانه الذى يشمل كل خطية .

ومن أمثلة ذلك قول بولس الرسول عن خاطىء كورنثوس «... تسامحونه بالحرى وتعزونه ، لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط . لذلك أطلب أن تمكنوا له المحبة » (٢ كو٢ : ٧، ٨) .

والحكمة هنا تقتضى حفظ التوازن بين أمرين :

إنسان غافل عن نفسه ، يحتاج إلى من يشعره ببشاعة الخطية حتى يستيقظ . وإنسان آخر شعر ببشاعة الخطية ، وكاد ييأس من خلاصه . وهذا لا نحدثه عن الخطية ، وإنما عن مراحم الله ، حتى لا يقع فى قطع الرجاء ويهلك .

على أن الشيطان كما يحاول أن يوقع التائب فى اليأس من المغفرة ، يحاول أن يوقعه أيضاً فى اليأس من التوبة !

إنه لا يريد أن يفلت الخاطىء من يده . فإن وجده قد استيقظ من غفوته و بدأ يمارس أعمال التوبة ، يحسده على ذلك ، ويحاول أن يوقعه فى الكآبة الشديدة التى تقود إلى اليأس . فإن فشل فى هذا ، يثير عليه حرباً شعواء عنيفة فى نفس الخطية التى تاب عنها ، حتى يرجعه إليها ، و يشعره أن التوبة عن هذه الخطية أمر مستحيل عملياً ، ولا بد أن يسقط فيها عملياً مهما ابتعد عنها ... !

وفى قصة القديسة مريم القبطية مثال لذلك :

فإنها بعد أن تابت ، ونذرت نفسها ، ودخلت فى حياة الرهبنة

والسياحة ، حسد الشيطان توبتها ، وحاربها بعنف لكى يرجعها . وهكذا قالت للقديس زوسيما :

« لمدة سبعة عشر عاماً ، حاربت الشهوات غير المرئية التى للطبيعة الفاسدة ، مثلما أحارب وحوشاً حقيقية ... وكانت مئات الأغانى الخليعة تعبر على ذهنى ، بل وتأتى على شفتى ، وحينئذ كنت أقرع صدرى مذكرة نفسى بتوبتى ، وبدموع كنت أطلب معونة الله وشفاعة العذراء ... فكان يحوطنى نور باهر وتهرب التجربة » .

« ومرات أخرى كثيرة ، كانت تهاجمنى آلاف الذكريات الحسية والأفكار الدنسة . وكانت تجعل فى قلبى آلاماً شديدة ، بل كانت تجرى فى عروق كجمر مشتعل . حينئذ كنت أخر إلى الأرض متضرعة ... إلى أن يحوطنى النور الإلهى مثل دائرة من نار، لا يستطيع المجرب أن يتعداها » .

« وكانت العذراء معينة لى بالحقيقة فى حياة التوبة ، فكانت طوال هذه المدة تقودنى بيدها وتصلى لأجلى » .

٤ ـ حرارة روحية تصحب اليقظة :

الإنسان الذى يستيقظ روحياً ، كثيراً ما تشعل اليقظة قلبه بحرارة ملتهبة ، تدفعه إلى قدام ... فتعطيه إتضاعاً عجيباً وانسحاق قلب ، كما تعطيه إلتصاقاً دائماً بالله فى صلوات حارة . وإذا بكل عواطفه التى كانت متجهة إلى الخطية ، تتحول جميعها إلى الله فى قوة ، باندفاع يدوس فى طريقه كل شيء ، محاولاً أن يعوض السنين السابقة التى أكلها الجراد ...

إنها حرارة روحية تدخل فى الصوم والصلاة والجهاد الروحى والنسك والخدمة .

وكثيراً ما ينذر الإنسان التائب نفسه للرب .
وبهذا تحول كثير من الخطاة التائبين إلى قديسين ...

وكمثال لذلك ، القديس أوغسطينوس والقديس موسى الأسود .

كما نذكر القديسة مريم القبطية التى تحولت إلى سائحة ناسكة . والقديسة بيلاجية التى تحولت إلى متوحدة صانعة عجائب ، وغيرهما .

هذه النفوس التائبة سارت فى توبتها بجدية وتدقيق ...

عرفت ضعفها ، فعاشت فى حرص شديد ، وفى جهاد بلا كلل ، وهكذا عملت فيها النعمة ، وصعدت بها فى السلم الروحى بسرعة بلا عائق ...

وكانت هذه اليقظة نقطة تحول ثابتة ، وبلا رجعة ...

٥ ـ تعويض ما فات :

ومن الأمثلة البارزة فى هذا المجال ، زكا العشار ...

كان ظالماً ونهب كثيرين ، فلما استيقظ بنداء المسيح له ، قال للرب « ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين ، وإن كنت قد وشيت بأحد ، أرد أربعة أضعاف » (لو١٩ : ٨) .

وهكذا لا يتمسك التائب بشيء من مال الظلم ...

ولعل من أمثلة ذلك ، ما فعلته القديسة تاييس التائبة ...

فى وسط المدينة ، وأمام جمهور كبير من الناس ، أحرقت كل المال الذى كسبته عن طريق الخطية كالملابس الفاخرة والتحف والهدايا والأمتعة ، وهى تقول « تعالوا يارفاقى ، أنظروا إننى أحرق أمام أعينكم كل هداياكم وتذكاراتكم وكل ما جمعته عن طريق الخطية » .

٦ ـ مشاعر أخرى :

إلى جوار الحزن على الخطية ، يشعر الإنسان فى اليقظة الروحية بفرح ... فرح بأنه وجد الله وعرفه ، وفرح بأنه استطاع أن يتخلص من الخطية ، كفرح الغريق بدخوله فى قارب نجاة ...

و يشعر بأنه قد دخل حياة جديدة ، بفكر جديد ، كما قال الرسول « تغيروا عن شكلكم ، بتجديد أذهانكم » (رو١٢ : ٢) . فينظر إلى الأمور نظرة أخرى ... وتصبح حياته الجديدة غالية عليه ، يحرص عليها ...

السهر الروحى

السهر الروحى شيء غير اليقظة الروحية ، فاليقظة جزء من التوبة تأتى بعد غفلة . أما السهر فصفة حتى للقديسين الذين لم تكن لهم غفوة من قبل .

يصدر هذا الكتاب قريباً إن شاء الله و يليه كتاب (حياة التوبة والنقاء) .